مختارات
من الشعر الأفريقي

إبداعات أفريقية

إبداعات أفريقية

مختارات
من الشعر الأفريقي

الجزء الثاني

ترجمة: م. محمد الحسن

مراجعة وتدقيق: مالك صقور

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

مختارات من الشعر الأفريقي ج٢ / ترجمة محمد الحسن ؛ مراجعة وتدقيق مالك صقور. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦.- ١٢٤ص؛ ٢٠سم (سلسلة إبداعات أفريقية؛ ٦)

١- ٨٠٨,٨١ جن ح س ن م ٢- العنوان
٣- الحسن ٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

رواية باتوالا
للكاتب رينيه ماران
ترجمها عن الفرنسيّة سنان سليمان موسى

لمحة عن المترجم

- سنان موسى حائز على إجازة باللغة الفرنسية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة دمشق عام ٢٠٠٦.
- حاصل على شهادة DELF -B٢ من أكاديمية بواتييه في فرنسا عام ٢٠١٠.
- ترجمة مقالات ونصوص للدوريات المحلية.
- هذه باكورة أعماله الترجمية الكاملة.

الغلاف ـ الصفحة الأخيرة

لم يعد باستطاعة القائد باتوالا أن ينام كالسابق في سكينةٍ في الدّغل العالي ؛ فقد كانت لديه همومٌ جمّةٌ تمنعه من الاستمتاعِ ‹‹ بعذوبة الدفء الداخليّ للنوم ›› و منها : وظائفه اليوميّة و اقتراب مواعيد الصيد والبُعد الواضح لزوجته عنه ... وعلى وجه الخصوص تلك الوشاية غير المؤكّدة والّتي تكرر القول بأنّ

الرجل الأبيض يذلّ الرجل الأسود ويعامله بطريقةٍ أسوأ من تلك التي يعامل بها كلبه ٠
هل سيستطيع باتوالا بعد ذلك أن يعيش سعيداً على ضفاف نهر نيوبانغي الكبير ؟
إن « باتوالا » هي أوّل روايةٍ عن الزنوجة كتبها رجلٌ زنجيٌّ ، مؤلّفها موظّفٌ من جزر الأنتيل يعمل في وزارة المستعمرات و قد أثارت هذه الرواية فضيحةً في عام ١٩٢١ ، ومع ذلك فقد نالت في العام نفسه جائزة الغونكور ٠٠٠
إنّ قراءة هذه الرواية ومقدمتها الإلزاميّة ستسمح للطلاّب فهم السياق الذي أتاح ولادة مثل هذا العمل ومثل تلك المفارقة . و ستسمح لهم أيضاً باكتشاف واحدٍ من أوائل النصوص التي تتحدث عن الزنوجة ، وهي حركةٌ أدبيّةٌ وفنيّةٌ من القرن العشرين سينتج عنها بزوغ الثقافة السوداء و ضميرها ٠

سيرة حياة رينيه ماران

تُعتَبَر« باتوالا» أوّل روايةٍ عن الزنوجة ، كاتبها من جزر المارتينيك ، مولودٌ في فور دي فرانس في ٥ تشرين الثاني عام ١٨٨٧ من والدين فرنسيين أسودين٠ درس رينيه ماران في مدينة بوردو الفرنسية ، وفي صورةٍ نُشِرَت عام ١٩٣١ في صحيفةٍ تحمل عنوان« المتشدد» تعود لعام ١٩٠٠ ، يظهر فيها شابٌ يافعٌ عمره ١٣ عاماً وهو يضع ربطة عنقٍ و

يبدو عليه الهدوء – وهو سيّافٌ مرموق و لاعب ركبي أيضاً ، هوايته الأخرى هي الكتابة فقد نشر عام ١٩٠٩ ديوان شعرٍ بعنوان « بيت السعادة» .
درس دراساتٍ عليا في باريس و دخل في السِّلك الإداريّ ، إنّ تجربته الأفريقية عام ١٩١٢ كموظّفٍ إداريّ في مستعمرات أوبانغي أربكت وجوده و عمله ككاتب .
إنّ قصته الأولى بعنوان « *دجغوني* » والتي لم تُنشَر إلاّ بعد وفاته تأخذ بعين الاعتبار هذه التجربة وهذا الإرباك الذي وضعه في هذا الموقف ... يا له من أمرٍ مزعجٍ أن يقوم رجلٌ أسود بتجسيد السلطة الاستعماريّة لدى أقْرانه السّود . لكن ، في رواية « باتوالا» سيتمّ شرح وعي المصير الذي يفرضه الاستعمار على سكان البلد الأصليين : فتحت عنوان رواية زنجيّة حقيقية ، تبدأ القصة ليس بعيداً عن ضفاف بحيرة تشاد.
و خلال سفره إلى باريس ؛ يقوم ماران بعرضها على صديقه مانويل جاهستو الذي يعطيها بدوره للشاعر هنزي دي رينيه الذي قرأها بحماس و قدّمها لناشره .
قُبِلَ المخطوط واقتُرِح لنيل جائزة غونكور لعام ١٩٢١ ، وبالفعل نالت الرواية الجائزة و كانت مكافأة لأوّل رواية .
لكنّ المقدمة سببت صدمةً و أثارت حملةً صحفيةً عنيفةً ضدّ الكاتب ، وهذا ماأجبره على الاستقالة من عمله.
عندئذٍ انكبّ على كتابة عمله الشعريّ و الروائيّ بعنوان الوجه الهادئ عام ١٩٢٢ و الصور الجميلة عام ١٩٣٥ و مجموعةٍ من قصص الحيوانات و منها : دجوما كلب الأدغال عام ١٩٢٧ و يومبا النمس عام ١٩٣٨ ، و مبالا الفيل عام ١٩٤٢ ..
وصفه بيير لوازليه في الأخبار الأدبية في تموز عام ١٩٣٨ كما يلي : قبل كلّ شيء يحسّ رينيه ماران و يتذوّق الحريّة ، هذا الذوق الشرس كان يجعله يتملص من كل الدعوات الموجهة إليه

" هو حرٌّ بذلك و حرٌّ يريد ديمومة ذلك { ٠٠٠ } ما من أحدٍ في العالم كلّه ، لا سياسيٌّ و لا أخلاقيّ يستطيع أن يدّعي بأنّه قيّده بشيء { ٠٠٠ } إنّه رجلٌ متحمسٌ – و الحماس مستشارٌ سيئ – هو من يستنكر و يشتهر بالفضائح التي ثار الظلم ضدّها و يرفض العبوديّة مهما كان مصدرها ... لقد اختار رينيه ماران أن يكون شخصيّةً مهمّة لم تتوصل إلى شيء .

ولكي يكسب قوت عيشه ، كتب ماران الكثير من السّير الذاتيّة التاريخيّة نذكر منها : سيرة فليكس إيبويه – الذي التحق بالجنرال دي غول في ١٨ حزيران عام ١٩٤٠ و ترقد رفاته في مقبرة العظماء في بانتيون – و سيرة بيرتران دي غيسكلان٠

إنّ انتماءه لثقافةٍ مزدوجةٍ – ثقافة المُستعمِر و ثقافة المُستعمَر– قد قاده لكتابة رواية الرجل المشابه للآخرين في عام ١٩٤٧ حيث يذكر فيها الواقع المرير للإنسان الأسود المستعبَد ٠

وفي عام ١٩٤٩ نال جائزة مجتمع رجال الأدب ، و في عام ١٩٥٠ نال جائزة البحر و ما وراء البحار .. رائد الزنوجة هذا والذي تغنّى بها سيزار وسنغور اعتباراً من عام١٩٤٥ ومات في عام ١٩٦٠ ٠

السياق التاريخيّ والأدبيّ لرواية باتوالا

من الاكتشاف إلى الاستعمار

كانت التجارة تتحدد ما بين أوروبا و أفريقيا في القرن السادس عشر بنفي العبيد السود باتجاه أمريكا ؛ لكنّ التوجه اختلف في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر كما يلي : إنّ مبشّرين و مستكشفين غيّروا التوجه من الشواطئ ليذهبوا إلى داخل أفريقيا بحثاً عن الثراء الموعود – و ذلك بتنصير الناس و تحويل المواد الأوّلية ، و لكي تستعمرهم و تراقبهم السلطات الاوروبية فقد وضعت جنودها و رجال أعمالها في القارّة الأفريقية و ذلك لتحدد مناطق نفوذها و توقّع معاهداتٍ مع السلطات المحليّة ؛ و هذا يُعتَبَر بالنسبة لاقتصادهم بمثابة افتتاحٍ لمنافذ تجاريّةٍ أسطوريّةٍ ، و يذكر الكاتب السنغالي شيخ حاميدوكان في مؤلّفه المغامرة الغامضة (جوليار عام ١٩٦١) " صباح الغرب هذا في أفريقيا السوداء {٠٠٠} مزينٌ بالابتسامات و ضربات المدفع و المصنوعات الزجاجية البرّاقة ٠ هؤلاء من لم يكن لديهم تاريخٌ البتّة كانوا يلتقون بأولئك ممن يحملون العالم على أكتافهم {٠٠٠} و النتيجة كانت ذاتها في كلّ مكانٍ٠ فكلّ الّذين قاتلوا و

استسلموا و تباروا و تعنتوا بآرائهم قد التقوا جميعهم في اليوم الموعود ، و قد أحُصِيَ عددهم و قُسِّموا و صُنِّفوا و جُنِّدوا و أصبحوا مرؤوسين " ، و في عام ١٨٧٩ تأسست الجمعية الدولية للاستكشاف و لحضارة أفريقيا المركزية ، و بعد ثمانية أعوام نُظِّمَ مؤتمر برلين (في تشرين الثاني عام ١٨٨٤ و في شباطٍ من عام ١٨٨٥) لتقسيم القارّة الأفريقية برمّتها ٠

و حتى لو أنّ تيار المعارضة – السياسيّ أوالأخلاقيّ – قد نقض أحياناً المظهر المغامر و التكلفة الإنسانيّة و الماديّة لغزو كهذا ، فإنّ الغزو سوف يتطور باستمرار خلال خمسة عشر عاماً باسم الحضارة و التقدم و باحتقارٍ شبه تامٍ لهؤلاء الذين يسمّون زنوجاً و لاقتصادهم الخاص و لتقاليدهم ٠

و في بداية القرن العشرين ، أصبحت ضرورة وجود الاستعمار مقبولةً على وجه العموم ، فمنهم من رأى في هذا الوجود انتقاماً من ألمانيا ، و مع أنّ جان جوريس قد دافع عن الاستعمار المستنير فإنّ وضعه و وضع القسم الفرنسيّ للعمالة الدوليّة ظلّ غامضاً جداً ٠

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى – مع أننا نعلم أن طموح و مصالح القوى المختلفة كانت حاسمةً بالنسبة لنشوب هذا الصراع – فإنّ الشعوب المستعمَرة أسهمت في المجهود الوطني كونها خاضعة للاستغلال المتزايد – إنّها بداية الورشات الكبرى – و من كان أكثر شباباً فقد جُنِّد في الجيش .. في الفصل الخامس من رواية باتوالا نجد التلميح التالي لذلك :

و صرخ مرافق باتوالا : لقد بدؤوا على ما يبدو بترحيل كلّ " الجنود السود " إلى أوروبا بسبب الجدالات الكبيرة الحاصلة حالياً ما بين الجنود الفرنسيين البيض و الجنود الألمان البيض ٠

أها ٠٠٠ نرى كلّ " البنادق الطويلة " و كلّ القناصين السنغاليين متوجّهين إلى أوروبا ٠
(ص ٩١ ، ١٠١٩٨ - ٢٠٢)٠
كانت التضحية في عام ١٩١٦ عندما نجح النائب الأفريقي الوحيد بالتصويت للنص التالي : " كان وسيبقى مواطناً فرنسياً كلّ من وُلِد في المقاطعات الأربع في السنغال و كذلك أولاده و أحفاده ٠"

تناقضات الاستعمار و ولادة الزّنوجة

كان مناصرو الاستعمار مشتتين ما بين إيديولوجياتٍ و تياراتٍ مختلفةٍ ، وهو ما ترك بينهم فجوات اختلافٍ متنوعة ٠
بالفعل ، بعد معاهدة برلين و المصادقة على الاستثمار أصبحت الميول واضحةً لتدمير الثقافات الأفريقية و طرق تعبيرها فعلى سبيل المثال : الغناء و الرقص و حفلات الطقوس ؛ فقد وصف السود بأنّهم ناكرون للجميل و أميّون ، و يجب استعبادهم و تربيتهم ، و الطبقات العليا جُنِّدت في " رئاسة مكتب الهندسة " أما الطبقات الأكثر فقراً فقد استُعبِدت ٠
و في الوقت نفسه بدأت معرفةٌ حقيقيةٌ بعلم الإنسان في أفريقيا : ففي عام ١٨٧٩ ، أُنشِئ في باريس متحفٌ عرقيٌّ في تروكادايرو ، و في كلّ أوروبا هناك معارض مخصصةٌ " للفن الزنجيّ" ٠ و بكلّ تأكيد فإنّ الشعوب المستعمَرة ليس لديها أيّة مصلحةٍ في هذه الحركة و خطابها الذي يتركز على فوقيّة الثقافة الغربيّة ، لكن هذا لم يمنع من أن يكون" للفن الزنجيّ" تأثيرٌ عميقٌ على فناني بداية القرن العشرين و الذين كان عندهم قطيعةٌ مع " العالم القديم "نذكر منهم : التعبيريون و المتوحشون و التكعيبيون و الشعراء و الموسيقيون٠ (جوان

غريس و بابلو بيكاسو و بليزسندرارس و بول موران و أرتير كرافان الشاعر الملاكم ، و كذلك الشعراء الداديون) فكلّ هؤلاء كانوا يبحثون في إيقاع و اهتزازات القارّة السوداء عن روحٍ تحمل إحساساً جديداً .. إنّ الزنوجة لها مكانها الثابت في تاريخ الفنون و الآداب ٠

لوحِظت هذه الثغرة من خلال المفكرين الكاريبيين و كذلك من خلال الأفارقة الذين تعلّموا في مدارس المستعمَرات ، أولئك المتصرّفون المستقبليون القادرون على إتقان لغة المستوطنين و "الإسهام في الإدارة ، و حتى عام ١٩٢٤ " كان يكفي أن نُعلّم ابن البلد لغة القراءة و الكتابة و التثبيت في ذهنه لمبادئ الحساب مع بعض مفردات الأخلاق ٠"و لكنّ تعليمات عام ١٩٢٤ كانت تؤكّد على ضرورة تشكيل نخبةٍ تعمل لمصلحة القضية الاستعمارية٠ هل تساءلت الدول الاستعماريّة عمّا ستفعله هذه النخب السوداء بهذا الجزء الصغير من السلطة ؟

تلقّي رواية باتوالا

إن رينيه ماران و قضية باتوالا ليسا سوى إشهارٍ لنتائج مؤلمة جداً في بعض الأحيان لهذا التهجين الثقافي ٠

مولودٌ في جزر المارتينيك من أبوين من غوايان ، ومتعلّمٌ في أفضل المدارس ، وموظّفٌ في الدوائر الحكومية الاستعمارية ، إن رينيه ماران لم يكتب عن ذلك أقلّ من كتابٍ يصف فيه شروط حياة الزنوج السود في (أوبانغي – شاري) و تجرّأ أن يعطي للزنوج مكانة الأشخاص الرئيسيين ؛ أما بالنسبة للبيض فهم صورٌ هزليّةٌ تحركهم ممارسة سلطةٍ تعسفيّةٍ و رغبة ثابتة بإذلال الشعوب المستعمَرة ٠

وعندما كافأت أكاديمية غونكور باتوالا فإنّها كرّمت حماس رينيه ماران و إتقانه الطبيعيّ لفنّ الرواية ، لكنّ الإدارة لم ترَ

فيها إلاّ احتفالاً بالروح الزنجيّة و نقضاً للممارسات الاستعمارية حتى لو كان بشكلٍ خجول . منعت السلطات نشر رواية باتوالا في أفريقيا و دفعت رينيه ماران إلى الاستقالة ٠
ويُضاف إلى ذلك ألمٌ إضافيٌّ أزعج الكاتب ؛ ألا و هو أن عدّة مثقّفين سود نقدوا مفهومه للزنوجة و اتّهموه بالدّفاع عن المفهوم الاستعماريّ من وجهة نظرٍ إنسانيّةٍ .
٠٠٠ ولكن على الرغم من كلّ ذلكً فإنّ رواية باتوالا جعلت من ماران أحد أهمّ روّاد الزنوجة ٠

ملخص رواية باتوالا

يبدأ النهار ويستيقظ القائد العظيم باتوالا بين الحيوانات الأليفة ، ها هو يدخّن بجانب زوجته المعتزّة بنفسها و تدعى ياسيغيندجا ؛

ويتبع مونولوجاً داخليّاً و هو يفكّر بالتحضير لحفلة < غانزاس >[1] .
لقد كان قرع الطبول يذيع الخبر للقبائل الأخرى ، و في المساء فإنّ الشاب القويّ بيسيبينغي يربك نساء باتوالا ، بينما تُعرِب ياسيغيندجا عن رغبتها به (الفصول ١ و ٢) .
في اليوم التالي – و في كوخها الخاص - تتابع ياسيغيندجا أحلام يقظتها الفاترة و تتساءل عن الموعد الذي حدده لها بيسيبينغي ، ثم تقرر أن تذهب إليه و تهرب بعدها من مخالب النمر بفضل الوصول المفاجئ لباتوالا و بيسيبنغي معاً ، و في اللحظة نفسها، حيث يقومان بطرد النمر إلى مكان ليس ببعيد ، وهنا يشكّ باتوالا برفيقه .
(الفصل ٣) تهبّ العاصفة بين النساء في الأدغال (الفصل ٤) إنّ احتفال الخمور و الختان في آخر تحضيراته ؛ و وسط تجمّع الرجال كان باتوالا و كبار السنّ يسخرون من الأزمات التي مرّ بها البيض إذ أنّ " الجنود البيض الفرنسيين " و الجنود الألمان البيض هم دائماً في حالة حرب .. أمّا بالنسبة للمطّاط فإنّه لا يُباع أبداً ، و سريعاً مايتحمس باتوالا و يثور ضد البيض من قادةٍ عسكريين و موظفين و تجّارٍ و ينتقد استعبادهم للسّود ، ثمّ إنّ والده أخذ يدعوه للاستسلام (الفصل ٥) . أما حفلة غانزاس فتسير على قدمٍ و ساق ؛ حيث الرعدة الجنسيّة و النشوة يبلغان ذروتهما ، و وسط هذا الهيجان فإن زوجاً جديداً يهوي على الأرض : يرفسهما باتوالا برجله لأنّه تعرّف عليهما ألا و هما زوجته و بيسيبنغي ، بينما وصول القائد العسكري يبعثر المشاجرة التي كانت قد بدأت .. و يبقى والد باتوالا وحيداً على الأرض ثملاً ميتاً ، تقوم القبيلة بإجراء مراسم الجنازة و

[1] هي عبارة عن حفلات للقيام بختان الفتيان و الفتيات . (المترجمة)

باتوالا يتوعد بالانتقام من بيسيبنغي . بينما كان ينبغي عليه البحث عمّن تسبب بموت والده (الفصل ٧) ومن جهته ، فإنّ بيسيبنغي ينتظر قدوم ياسيغيندجا إلى الموعد الذي حدده لها٠ عند العشيّة تتبعه و تُعلِمه بأنّ الساحر قد أشار إليها بأنها العين الحسودة ، و تطلب من عشيقها بأن يهرب معها ، لكنه يقترح عليها بأن تنتظر نهاية موسم الصيد (الفصل ٨) و تلبية لدعوة باتوالا و هو في الطريق للذهاب إليه يتساءل بيسيبنغي كيف سيقتله باتوالا .

(الفصل ٩) و عندما يصل إلى المعسكر يجد باتوالا ثَمِلاً بشكلٍ كامل فيدخلان في شجارٍ و تبادلٍ للأكاذيب فيما بينهما ، لكن تهديدات باتوالا كانت بالكاد مكشوفة ٠

وعند وصول مجموعةٍ من الرجال اطمأنّ بيسيبنغي قليلاً (الفصل ١٠)٠

وفي اليوم التالي كان النهار مواتياً للصيد ، والنار التي يستخدمها الصيادون لإحاطة الحيوانات تحاصر الكثير منها ، وكانت الإثارة في ذروتها ، عندما انقضّ النمر مهاجماً ، مستفيداً من خوفه . باتوالا يرمي برمحٍ صغير على بيسيبنغي ولكنه لم يرَ النمر الذي ينقضّ عليه و يفتحُ له بطنه (الفصول ١١ و ١٢) و بسبب الصيد يتأجل إيصال باتوالا الميّت إلى بيته ، لكن هذا الميّت الذي أهمله الجميع يستطيع رؤية بيسيبنغي و ياسيغيندجا يتعانقان قبل أن يخيّم الليل عليه .

تمهيد

هنري دي رينيه [١] و جاك بولانجيه ، هما الوصيان على هذا الكتاب ، و لا يسعني في بداية هذا التمهيد إلاّ أن أعترف بفضلكما و بنصائحكما . أنتما تعرفان و بكلّ حماس كم أتمنى نجاح هذه الرواية. وفي الحقيقة هي ليست سوى تتابعٍ للحفر على النحاس[٢] لكنها استغرقت ستّ سنواتٍ لكي تُنجَزً ، ستّ

[١] شاعر رمزي ثم كلاسيكي جديد و منتخب في الأكاديمية عام١٩١١ فقد كان كالعرّاب لباتوالا مع جاك بولانجيه .

[٢] حفر على النحاس بالأسود و الأبيض .

سنواتٍ لكي أعبر من خلالها عمّا لديّ و بالتأكيد لأصف بها ما رأيته ، ففي هذه السنوات الست ما من لحظةٍ مرّت تنازلت فيها عن قول كلمتي و دفعت فيها الرأي العام ليحذف الملاحظات المنسوبة لي .

إن زنوج أفريقيا الاستوائية هم في الواقع طائشون ، مجردون من روح النقد ، لم يكن و لن يكون عندهم أيّ نوعٍ من أنواع الذكاء ، على الأقل ، هذا ما ندّعيه و هو ادّعاءٌ خاطئ ٠ لأنه إذا كان الغباء هو ما يميّز الزنجيّ فلن يكون هناك إلا القليل جداً من الأوروبيين ٠

هذه الرواية هي إذاً روايةٌ موضوعيّة[١] ٠(و مهمة الكاتب ليس الشرح : فهو يثبت)٠(و لا يُسخط أبداً : فهو يسجل) و لم يكن بمقدوره أن يكون كائناً آخر٠ و في الليالي المقمرة ، و أنا مستلقٍ على كرسيّ الطويل على شرفتي كنت أستمع لحديث هؤلاء الفقراء ، فدعاباتهم كانت تؤكد رضوخهم حيث كانوا يعانون و يضحكون من معاناتهم ٠

آهٍ ! يا سيد برويل ، و في تجمع للعلماء [٢] لقد استطعتَ أن تصرّح بأنّ سكان أوبانغي – شاري يرتفع عددهم إلى مليونٍ و ثلاثمائةٍ و خمسين ألف مواطنٍ ، لكنك بالأحرى لم تقل بأنّ تعداد قريةٍ مثل (واهم) في عام ١٩١٨ لم يزد عن ألفٍ و ثمانين مواطناً على العشرة آلاف التي أحصيناها قبل سبع سنواتٍ خلت أليس كذلك ؟

لقد تكلّمْت عن ثراء هذا البلد الشاسع ، ألم تقل بأنّ المجاعة كانت مسيطرةً عليه ؟

---

[١] هذه الصفة تمثل وجهة نظر الراوي الذي يتوقف عند سرد الأحداث و وصف الأماكن و الشخصيات كما تبدو ٠و كما يكتب رينيه ماران ، هو يثبت و هو يسجل الحقيقة : فموضوعيته تعهد " الحقيقة "

[٢] نص مشكل من اجتماع و تجميع الملفات ٠

أنا أفهم ، نعم إنه في سيريوس[١] ، بأن عشرةً أو عشرين أو حتى مئة شخص من أهل البلد المحليين كانوا قد بحثوا في يومٍ واحدٍ من أيام الفقر الذي لاتحصَى ، بين روث الخيول التابعة للكواسر الذين يدّعون بأنهم أولياء نعمتهم ، عن حبوب الذرة أو الترمس[٢] التي لا تُهضَم، بأنها ينبغي أن تكون قوتهم !

لقد كان مونتيسكيو على حقٍ حين كتب في صفحةٍ واحدةٍ و بسخريةٍ باردةٍ حيث يهتزّ السخط : " إنهم سود من أقدامهم حتى رؤوسهم و حتى و لو كان لهم أنفٌ أفطس فمن المستحيل تقريباً أن نشفق عليهم[٣]" . و بعد ذلك إذا كانوا قد < نفقوا > من الجوع بالآلاف كالذباب يجب وضع بلدهم موضع اهتمام ، حيث يختفي و يتلاشى من لا يتلاءم مع الحضارة .

حضارةٌ ، وحضارة وغرور الأوروبيين وركام جثثٍ من الأبرياء ، إنّ الشاعر الهندي راباندرانات طاغور[٤] قد قال يوماً ما في طوكيو : ماذا كنت !

أنت تبني مملكتك على الجثث ، مهما كان ما تريد ، و مهما كان ما تفعل فأنت تتحرك ضمن الكذب ، و بنظرك فإنّ الدموع تنهمر و الألم يصرخ . أنت تملك القوة التي تقهر الحق. لست أنت الشعلة و لكنك الحريق ، و كل ما تلمسه يصبح مُستهلَكاً.

---

[١] قصة الصغير الكبير لفيكتور هوجو هي في الأصل كوكب تابع لنجمة تعتبر جزءاً من مجموعة الكلب الكبير . و الكاتب يشير فيها إلى أن العالم الذي يعيش فيه السيد برونيل هو بعيد عن افريقيا كبعد سيريوس عن كوكب الأرض و إن بؤس " الزنوج هو بعيد جداً عن اهتماماته .

[٢] نبات ذو حبوب صغيرة.

[٣] المراد بذلك قول من روح القوانين (١٧٤٨) : في الفصل الخامس المعنون ب " من عبودية الزنوج " و يدعي مونتسكيو الانحياز للعبودية و لكن الدلائل التي قدمها كانت عبثية و إن القضية الرقيّة كانت مثارة بسخرية مشكوك فيها .

[٤] شاعر و فيلسوف هندي متحدر من كالكوتا و حائز على جائزة نوبل عام ١٩١٣ من خلال ديوانه *القربان الغنائي* (ترجمه أندريه جيد) . في عام ١٩١٦ أدان الحرب و سافر ليتعرف على تقاليد الشعوب الأخرى .

المجد و الشرف للبلد الذي منحني كلّ شيء ، إخوتي في فرنسا ، أيّها الكُتّاب من كلّ الأحزاب ، أنتم يا من تتشاجرون غالباً بلا سبب ، و تتمزقون بسرور ، تتصالحون فجأةً و في كلّ مرةٍ يتعلق الأمر بالقتال من أجل فكرةٍ صحيحةٍ و نبيلة ، أستنجد بكم لأنني أثق بكرمكم .
ليس كتابي هذا مثاراً للجدل[١] ٠ فهو و للصدفة جاء في وقته ، فالمسألة الزنجيّة " راهنةٌ "
من أراد أن يكون كذلك ؟ إمّا الأمريكان[٢] أو حملات الصحف ما وراء نهر الراين ، أو روموليوس كوكو للكاتب بول ريبوكس ، أو وجه الدغل للكاتب بيير بوناردي و العزلة[٣] للكاتب المسكين برنارد كومبيت . ألستِ أنتِ ، " حواء "[٤] تلك الصغيرة الفضوليّة التي و في بداية هذا العام بينما كنتِ لاتزالين مجلّةً يوميّةً بدأتِ تتحرّين لمعرفة ما إذا استطاعت بيضاء أن تتزوج من أسود ؟
منذ ذلك الحين نشر ‹ جان فينو > في المجلة مقالاتٍ عن استخدام القوات السوداء ، و كذلك فإن الدكتور هوت خصص عنهم دراسةً في ميركور دو فرانس ، كذلك تكلّم السيد م٠موريس بورجوا في مجلة الآداب عن تلك القوات في الولايات المتحدة ، و في النهاية و خلال استجوابٍ في مجلس النواب[٥] فإن وزير الحرب ، السيد < اندريه لوفيفر > لم يخشَ أبداً بأن يصرّح أنّ عدّة موظفين فرنسيين اعتقدوا بأنهم يستطيعون أن

---

[١] ليس لديه أية رغبة بإثارة مناقشة حادة أو هجومية ٠
[٢] يلمح رينيه ماران بلا شك لموسيقا السود في هارلم و للجاز و التي اكتشفت أوروبا إيقاعاتهم ٠
[٣] كتب (روايات و قصصاً او دراسات) تتناول" المسألة الزنجية "
[٤] مجلة
[٥] مجلس النواب أوالجمعية القومية ٠

يتصرفوا في الألزاس و اللورين المُستعادة كما لو أنّهم في الكونغو الفرنسيّ ٠

هذه الكلمات التي نُطِقَت في مكانٍ ما إنّما هي معبِّرة تماماً ، وهي تؤكّد في الوقت نفسه بأننا على درايةٍ بما يحدث في هذه الأراضي البعيدة و حتى الآن ، لم نحاول أن نجد حلولاً لهذا العبث و الاختلاس و وحشيّة من تخلوا عنها٠ و كذلك " أفضل المستعمِرين لم يكن من مستعمِري الوظائف و إنما كان الجنود الأوروبيون الموجودون في الخندق٠" فالسيد بليز ديان [1] يؤكد ذلك ٠

إخوتي في الفكر ، أيّها الكُتّاب الفرنسيون ، هذه هي الحقيقة لذلك منذ الآن يجب عليكم أن تعبّروا بأنكم لا تريدون ، تحت أيّة ذريعة أن يكون مواطنوكم هناك يقللون من شأن أمّةٍ أنتم حماتها ، فليرتفع صوتكم ! يجب أن تساعدوا من يقول الأشياء كما هي و ليس كما يريدونها أن تكون ، وفيما بعد عندما سننظف قمامة [2] المستعمرات سأرسم لكم بعضاً من هذه النماذج، و لكن سأحتفظ بالمزيد من الزمن في دفاتري٠ و سأقول لكم بأنّه في بعض الأقاليم كان الزنوج المساكين يبيعون زوجاتهم بسعرٍ بخسٍ يتراوح بين ٢٥ و٧٥ فرنكاً من أجل أن يدفعوا ضرائبَ الرؤوس [3]٠ سأقول لكم ٠٠٠

لكن عندئذٍ سأتكلم باسمي و ليس باسم أحدٍ آخر ؛ ستكون أفكاري التي سأعرضها و ليس أفكار أحدٍ آخر غيري٠ و بشكلٍ مسبق ، فإن الأوروبيين الذين أقصدهم و الذين أعرفهم بأنهم

---

[1] نائب أسود من السنغال عُيِّن كمفوّض في الأمور الاستعمارية خلال الحرب العالمية الأولى ، و هو من دفع بأفريقيا للمشاركة في الحرب ٠

[2] طبقا للاشتقاق فهذه الكلمة تعني حياً ذا سمعة سيئة ، و تعني مجازاً القمامة التي تركها الاستعمار خلفه ٠

[3] ضريبة تفرض على كل رأس ، أي على كل شخص ٠

جبناء و واثقٌ تمام الثقة بأنه ما من أحدٍ منهم يجرؤ أن يُكذّب ذلك بأدنى كلمة .
و لأنّ الحياة الاستعمارية ميسورة العيش ، فهل نستطيع أن نعرف من أيّة وضاعةٍ يوميةٍ خُلِقت ، سنتكلم عنها قليلاً و لن نعود للكلام عنها. فهي تُذَلّ شيئاً فشيئاً. نادرون هم حتى من كان موظفاً منهم من المستعمرين المثقفين من كانت له القوة أن يقاوم هذا الجوّ. فقد تعودوا على الخمر . و قبل الحرب ، كان الكثير من الأوروبيين قادرين بمفردهم على إفراغ أكثر من ١٥ ليتراً من الخمر خلال ثلاثين يوماً. و منذ ذلك الوقت و للأسف عرفت واحداً منهم حطّم كلّ الأرقام القياسية فقد شرب ثمانين زجاجة ويسكي دفعةً واحدةً خلال شهرٍ واحد .
هذا الإسراف في التعاطي و غير ذلك من التجاوزات تقود الذين يبرعون في الشرب إلى الخمول[١] و النزول إلى مستوىً كبيرٍ من الوضاعة، و هذه الدناءة لا تقلق إلاّ من يمثلون فرنسا ، وهم من يتحملون مسؤولية الضرر الذي يعاني منه العديد من بلاد السود في اللحظة الراهنة .
ومن أجل أن يتقدموا في الرتب كان يتوجب عليهم ألاّ تكون " لديهم مشاكل ".
وبسبب هذه الفكرة التي تراودهم فقد تخلّوا عن آبائهم ، لقد ترددوا ، وأجّلوا وكذّبوا و أسهبوا في كذبهم ، فهم رفضوا أن يَرَوا ولا أن يسمعوا ، ولم تكن لديهم الشجاعة لكي يتكلّموا.
ويُضاف إلى ضحالة ثقافتهم الضعف[٢] الأخلاقي ، و دون ندمٍ منهم ، فقد خانوا بلدانهم ، و كلّ ما سمته الإدارة تحت مسمىً التورية[٣] ما هو إلاّ نوعٌ من الهذيان أدعوكم لتصحيحه. سيكون

---

[١] جبن ، وضاعة ، " وضيع" مقرف ، سافل
[٢] نقص بالقوة ، أي ضعف .
[٣] طريقة مخففة يشرح من خلالها فكرة صادمة أو مزعجة .

الصراع صارماً. سوف تجابهون النخّاسين ، وسوف يكون الكفاح ضدّهم أقسى من مقاومة الطواحين ، فمهمتكم كبيرة ، فإلى العمل و بلا انتظار ! فإن فرنسا تريد ذلك !

تجري أحداث هذه الرواية في أوبانغي – شاري ، وهي واحدةٌ من المستعمرات التابعة للحكومة العامة الأفريقية الاستوائية الفرنسية .

يحدها من الجنوب أوبانغي ، و من الشرق الخط الفاصل بين مياه الكونغو والنيل ، ومن الغرب الخط الفاصل بين الكونغو و شاري ، هذه المستعمَرة كغيرها من المستعمَرات مقسّمة إلى دوائر وإلى شعَب . و الدائرة عبارةٌ عن كيان إداريّ يماثل المحافظة ، بينما الشعَب عبارةٌ عن مقاطعات فرعية.

إن دائرة الكيمو هي واحدة من أهم الدوائر في اوبانغي – شاري. و لو عملنا في هذه السكة الحديدية المشهورة التي نتكلم عنها دائماً و لا نبدأ بها أبداً ، لكان مركز الفور – سيبوت هو مركز الدائرة التي قد تكون عاصمتها .

تضم الكيمو أربع دوائر هي : فور– دي– بوسيل ، و فور – سيبوت ، ديكوا و غريماري. أولاد البلد و حتّى الأوروبيون لا يعرفونها على التوالي إلا باسم كيمو و كريبيدجه و كومبيليه و بامبا ، إنّ مركز دائرة الكيمو و فور– سيبوت أي كريبيدجيه يقع تقريبا على بعد ١٩٠ كم من شمال بانغي ، عاصمة أوبانغي – شاري ، حيث لا يتجاوز تعداد الأوروبيين ١٥٠ شخصاً.

تقع شعبة غريماري أو بامبار أو كاندجيا على بعد ١٢٠ كم تقريباً من كريبيدجه شرقاً حيث يوجد النهر الذي شُيّد بجانبه المركز الإداري .

كان هذا الإقليم غنياً جداً بالمطاط ، وفيه كثافةٌ سكانيّةٌ عاليةٌ جدّاً ، تغطي مساحاته مزروعاتٌ من كلّ الأنواع ، فيه الكثير من الدجاج و الماعز. سبع سنواتٍ كانت كافيةً لتدميرها بشكلٍ

كامل ، القرى تفرقت و المزروعات اختفت وهلك الدجاج والماعز . أمّا السكان المحليون فقد أُرهِقوا بالأعمال اللامنتهية و المفرطة و التي لم ينالوا عليها أجراً ٠ ولم يكن لديهم الوقت الكافي لموسم البذار ، لقد رأوا الأمراض تنتشر والمجاعة تجتاح بلادهم وأعدادهم تتناقص٠ فهم ينحدرون من عائلةٍ قويةٍ ومحاربةٍ ، عَصِيّة على الشر و مقاومةٌ للتعب ٠ فلم تقدر الغزوات[1] السنوسية ولا النزاعات الأهليّة[2] المتكررة أن تدمرها٠ فاسم عائلتهم يضمن لهم البقاء ، ألم يكونوا " الباندا" و الباندا هنا ألا تعني " الشبكة " لأننا نصيد في الشبكة في الفصل الذي تحرق به نار الأدغال كل الآفاق ٠ مرّت الحضارة من هنا و من جانب قبائل متعددة منها داكباس و ماروكاس و لامبايس ، كلّ قبائل الباندا هذه قد أُبيدَت بالعشرات ٠

إنّ شعبة غريماري خصبةٌ و كثيرة الطرائد[3] و متضررة ، والثيران البريّة و الخنازير [4] البرّية تتكاثر بسرعةٍ و كذلك الدجاج الفرعوني و الحجل و طيور الترغلة ٠

والسواقي ترويها من كلّ الاتجاهات ، و الأشجار ضامرةٌ ومبعثَرة ، وهذا لا يدهش أبداً :

فالغابة[5] الاستوائيّة تتوقف في بانغي ، فلا نصادف أشجاراً جميلةً إلاّ بمحاذاة مجرى المياه٠ تجري الأنهار في الأماكن العالية وكما يسميها الباندا بلغتهم " كاغا "، والمرتفعات الثلاثة الأكثر قرباً من غريماري وهي مرتفع كوسييغامبا ومرتفع غوبو ومرتفع بيغا ٠ فالأول ينتصب على بعد اثنين أو ثلاثة كيلومترات من

---

[1] هجمات ، نهب ٠
[2] داخلية و ضمن العائلة ٠
[3] كثيرة الطرائد ٠
[4] خنزير بري أفريقي ٠
[5] غابة (كلمة قديمة)

جنوب شرق المركز و يحاذي في هذا الإتجاه وادي البامبا ، الغوبو و البيغا هم في بلد نغابو على بعد ٢٠ كيلو متراً من الشمال الشرقي ٠

وهكذا، وفي بضعة أسطر، تم وصف المكان الذي تدور فيه أحداث هذه الرواية ضمن نظرةٍ موضوعية ..

والآن ، وبناءً على قول « فيرلين » في نهاية قصائده الزجلية الاستهلالية[١] المكتوبة بشكل مقطع ثلاثي[٢] :

اليوم اذهب يا كتابي إلى حيث الصدفة تقودك ٠

مرّ على كتابة هذه المقدمة ١٧ عاماً٠ و سببت لي الكثير من الشتائم ولست آسفاً على ذلك٠ وأنا ممتنٌ لها كونها علمتني بأنه يجب عليّ أن أمتلك شجاعةً فرديّةً لأقول ما يكون ببساطة ٠

لا يمكن لباريس أن تنكر أن رواية باتوالا قد أنضجت حقيقةً لم تكن لتُعْرَف بشكلٍ عميق ٠

ألا يعادل هذا دليلاً من بين الألف دليل ؟

جاءت بعثة تفتيشٍ إلى تشاد في أوائل كانون الثاني عام ١٩٢٢ و هذا يعني في غمرة الاحتجاجات التي سببتها روايتي ، كان يجب عليها أن تتقصّى الحقائق عن كل الأحداث التي أشرت إليها ٠ لكن حدث العكس تماماً ؛ فقد جاء الأمر بإجراء بحثٍ في غير مكان٠ هذا الحذر المفرط لا يستحقّ أيّ تعليق٠ لم أشعر بالسعادة كما ينبغي إلا عام ١٩٢٧ هذا العام الذي نشر فيه اندريه جيد[٣] (سفر الى الكونغو) و نشر كتاباً لدونيز موران بعنوان (تشاد) و كانت مجالس النواب قد اعتراها الرعب و لذلك أقامت السكّة الحديدية في برازافيل أوسيان ٠

---

[١] استهلالية تكون في مطلع القصائد ٠

[٢] قصائد مكتوبة على شكل مقاطع ثلاثية كقصيدة جحيم دانتي ٠

[٣] عندما عاد من سفر إلى أفريقيا : نشر عام ١٩٢٧ سفر إلى الكونغو و في عام ١٩٢٨ العودة إلى تشاد ، و كلاهما يدحضان الاستعمار ٠

لم يبقَ لي من كل هذا الماضي القريب إلاّ أن أقوم بواجبي ككاتبٍ فرنسيٍّ و ألاّ أستفيد من شهرتي المفاجئة كي أصبح رجل أعمال ۰
باريس في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٧
ر۰ م

١

إنّ نار الحراسة التي اعتدنا علي إشعالها في كلّ مساء بدأت تنطفئ ببطءٍ خلال الليل تاركةً كتلةً ضعيفةً من الرماد الحار ، و جدار الكوخ المستدير كان يرشح بشكلٍ كامل ، وكانت إضاءةٌ خفيفةٌ تتسلل من السقيفة التي تُعتَبر بمثابة باب[١] ۰ وتحت القشّ

[١] باب

و بشكلٍ حَذِرٍ و مستمر يتابع النمل الأبيض عمله و هو يحفر بعيداً عن أروقته في التربة السمراء دعامة السقيفة المنخفضة و المائلة التي تحميهم من الرطوبة و الشمس .
وفي الخارج ، كانت الدِّيكة تصيح ، و بصياحها تختلط أصوات ذكورالماعز لتغري بخطمها الإناث وتعلو أيضاً أصوات طيور الطوقان ، وهناك في عمق الدغل وبمحاذاة ضفاف البومبو والبامبا زمجرة[1] أطفال باكويا وفم القرد الذي يشبه فم الكلب . يبدأ النهار .
وعلى الرغم من النعاس الذي يتلذذ به القائد العظيم باتوالا – باتوالا - الساحر التيميّ[2] عند الكثير من القرى ، فإنه يشعر تماماً بهذه الضوضاء .
كان يتثاءب و يرتجف و يتمطّى. هل كان يتوجب عليه أن يرقد مرّةً ثانية ؟ هل يجب عليه أن ينهض ؟ أن ينهض من خلال نغاكورا[3] ! لماذا ينهض ؟
لم يكن يحاول أن يعرف ذلك ، فقد كانت القرارات بسيطةً و معقدةً حسب درجتها القصوى.
لكن ألم يكن يتوجب عليه أن يقوم بمجهودٍ كبير لكي يقف على رجليه ؟
لقد كان أوّل من يعترف بأن القرار الواجب اتخاذه يمكن أن يظهرَ ببساطةٍ كبيرةٍ عند الناس البيض .. بالنسبة له ، كان يجد بأنّ هذا الشيء كان أصعب مما يظن ، و بشكلٍ اعتياديّ ، فإن الاستيقاظ والعمل يسيران معاً . بالتأكيد فإن العمل لم يكن ليخيفه ، قويٌ وغليظ الأعضاء وهو كإنسان يمشي بشكلٍ ممتاز ، و لم يكن له منافسٌ بقذف سكين الرمي أو الرمح

[1] زمجرة .
[2] ساحر تيمي ، و هذا يعني أنه قادر على التأثير على كل التعويذات و كل أدوات السحر .
[3] الإله الخالق .

القصير إن كان في سباقٍ أو نزال ، و زيادةً على ذلك كان يشتهر بقوّته الأسطوريّة بكل أرجاء بلد الباندا[1] ٠ و ببطولاته التي كان يقوم بها هاوياً أو محارباً ، فمهارته كصيادٍ شجاعٍ و حماسه كانا دائمين في جوٍ رائع .. و عندما كان يسطع القَمر إيبو في السماء المليئة بالنجوم ، لم يكن من النادر سماع كلمات التغني بانتصارات الساحر العظيم باتوالا حتى في القرى البعيدة مثل مبيس و داكباس داكواس و لامباسيس ، غير أنّ الأصوات غير المتناغمة الصادرة عن آلاتٍ موسيقيةٍ [2]مصنوعةٍ من جذوع الأشجار المجوفة فكانت تنسجم مع أصوات الطبول ٠

العمل إذاً لم يكن يخيفه ، فقط في لغة الرجال البيض ، كانت هذه الكلمة ذات معنىً مدهش٠ فهي تعني التعب دون نتيجةٍ مباشرةٍ أو واقعيّة ، و كذلك هي همومٌ و ألمٌ و استهتارٌ بالصحة و السعي وراء أهدافٍ خيالية ٠

ما الذي يبحث عنه الرجال البيض بعيداً عن بلدانهم في بلدٍ أسودَ ؟

كم كان من الأفضل لهم كلهم لو بقَوا في أراضيهم و لم يتحركوا منها !

إنّ الحياة قصيرةٌ ، و العمل لا يروق إلاّ لمن لا يفهمه ، فالتنبلة لاتُذِل أحداً٠ فهي تختلف عن الكسل في العمق ، سواءً شاطرناه رأيه أم لا فهو صلبٌ كالحديد و لا يبدّله إلاّ إذا ثبت العكس و هنا التوقف عن فعل أي شيء يعني استغلال كلّ ما يحيط بنا بكلّ طيبةٍ و بساطة٠

أن نعيش كلّ يوم بيومه ، و دون أن نتذكر الماضي و لا ننشغل بالمستقبل و لا نتّنبأ إلا بما هو ممتازٌ و تام ٠

---

[1] بلاد صيادي الشبكة (انظر المقدمة)

[2] آلات موسيقية مصنوعة من جذوع الأشجار المجوفة و المتحولة الى آلات نقر ٠

وكذلك لماذا يجب الاستيقاظ ؟ أليس الجلوس على وجه العموم أفضل من الوقوف ، أو ليس النوم بأفضل من الجلوس ؟ يا لهذه الرائحة الزكية التي تنعبث من العشب اليابس المنسوج في الحصيرة التي ينام عليها في الليل ! لا يمكن حقاً لجلد الثور المقتول حديثاً أن يتفوق عليها بالدفء أو النعومة . ومن ثم بدلاً من البقاء هنا والعيون مغلقةٌ والاستمرار في أحلام اليقظة ، ألم يحاول أن يعود للنوم ؟؟ و سيكون مسموحاً بالنسبة له أن يُقيِّم أكثر من المعتاد النعومة التامة لحصيرته .

يجب عليه أولاً أن يضرم من جديد ناره الخامدة ، فهو لم يكن بحاجةٍ إلاّ لعدة حطباتٍ و حفنةٍ من القشّ . و بعد ذلك و بفضل وجنتيه المنفوختين ينفخ على الرماد الذي كان يغطي المنملة الحمراء بالشرارات .

كان الدخان يتصاعد من بين الانفجارات ذات الومضات الجافّة و الحلزونية اللاذعة الخانقة ، وكان اللهب المتصاعد يسبق الحرارة التي تسود المكان .

هذه النتيجة التي حصلنا عليها تشبه خنزيراً يتغذى على النشاء[1] . جاعلاً ظهره إلى النّار، لم يعد أمامه إلاّ التمدد من جديد في كوخه الدافئ محاولاً النوم مرةً أخرى . و لم يعد لديه إلاّ إعادة تدفئة نفسه على الجمر كعظايةٍ أمريكيةٍ عاشبةٍ تحت أشعة الشمس ، كان يقلد زوجته « ياسي » كما كانت تفعل في الكثير من الفصول الجافة و الممطرة .

كانت زوجته قد ضربت مثلاً ممتازاً بذلك ! كانت تشخر... ماذا ؟ و بالقرب من مدفأةٍ ثانيةٍ خامدةٍ أيضاً ، كانت تغطّ في نوم عميق و رأسها على قرمة شجرة تنام بهدوءٍ و هي عاريةٌ تماماً و تضع يديها على بطنها و رجلاها متباعدتان بكلّ براءة !

---

[1] نشاء غذائي .

كانت تجسّ حلمتي ثدييها المترهلتين و المجعدتين اللتين تشبهان أوراق التبغ اليابسة ، أو تحكّ جسمها مُطلِقةً زفراتٍ طويلة . كانت شفتاها أحياناً تنبس بكلماتٍ غير واضحةٍ ، و ترسم بذلك حركاتٍ صغيرةً ناعمة. ثم لا يلبث الهدوء أن يخيّم من جديد و كذلك شخيرها.

من جهته ، كان دجوما ، الكلب الصغير الأحمر والحزين يترنح متكاسلاً خلف كومةٍ من العيدان و رأسه على ذيله في كومةٍ من السلال المطاطية هناك حيث يتعارك الدجاج و البط و الماعز في كلّ ليلةٍ تقريباً ، فقلّما نرى من جسمه المتغضّن النحيل إلا أذنيه الطويلتين و المستقيمتين المدببتين المتحركتين . كان يحركهما من وقتٍ لآخر بسبب البراغيث و القردة أو النحلات اللاتي كنّ يزعجنه ، وعلى الأغلب كان يفضّل أن يزمجر سراً دون أن يحرك إلا ياسيغندجا الشخص المفضل لدى سيدها باتوالا . و كذلك هو مهووس بأحلام الكلاب[1] ، كان يفتح فمه لا لالتقاط شيءٍ وإنّما ليطلق نباحاً عصبياً يبدد فيه صمت المكان.

اتّكأ باتوالا على حصيرته و لم يعد لديه أيّة طريقةٍ ليكمل بها نومه ، كلّ شيءٍ يحول دون نومه . كان الضباب يخيّم على الكوخ بالتدريج ، كان الجو بارداً و كان يشعر بالجوع بينما كان النهار يطول .

كلا و كلا و كلا ... لم يكن يستطيع أن يفكّر بالنوم أكثر من ذلك ! فالكثير من أنواع الضفادع ، التي كانت تتنافس في الخارج بنقيقها بين الأعشاب الكثيفة والمبللة ، تمنعه من النوم .

ورغم البرودة فقد كان حوله عدد من الذباب الذي يطنّ أو يئزّ دونما هوادة مستغلاً بذلك خمود النار.

---

[1] كلمة مشتقة من الكلاب .

وأخيراً ، و إن كان قطيع الماعز في شجاره قد صحا منذ صياح الديك وذهب للرعي ، فإنّ الدجاجات بقيت تحدث ضجةً كبيرةً. و كذلك الأمر بالنسبة للبطّ الهادئ ، فإنّه حالياً إمّا أن يبطبط أو ينقنق من دهشةٍ أو من قلقٍ موجّهاً عنقه إلى الجهة اليسرى بحركةٍ مرتجفةٍ ، أو ساحباً إياه إلى الجهة اليمنى .

يبدو أنه حصلت ظاهرةٌ أكثر غرابةً من بقيّة الظواهر المعروفة التي تحدث عند البط ، فهي تحرّك بحماس أعجازها المبطّنة بالريش و الزغب و تراقب بشكلٍ مائل فتحة الكوخ ، ثم تتجمّع حول قائد القطيع و كأنها تخضع لآرائه و اقتراحاته .

و عندما تظنّ بأنّها نجحت بشرح اللغز الذي جعلها مندهشةً و خطرةً و غبيّة ، تقف الواحدة تلو الآخرى حسب الطول و تنتظر أمام سلّة المطاط ، و تكرر بشكلٍ تلقائيٍ نفس الحركات التشنجية .

في كلّ خطوة من هذه النزهة الاهتزازية التي تخطوها و تتقدم فيها نحو الأمام ، كانت تمضي بجهدٍ و تجتمع في زاويةٍ تراقب بقلقٍ اتجاه المخرج .

قررت إحداها فجأةً أن تقوم بخمس أو ست خطواتٍ نحو المكان الذي كان يبدو فيه الضوء أبيض ، ثم تعود أدراجها خائفةً و ضاربةً الأرض بأكبر ريشةٍ لديها[1] حتى تُسرِّع اندفاعها وتمرَّ غائرةً من الباب ثم تختفي ، أما بقيّة القطيع فيقتفي أثرها و الرؤوس منحنية.

و هكذا ينهض دجوما - ذلك الكلب الأحمر الحزين - لم تعد هذه الضوضاء ترعبه أكثر من المعتاد. في السابق ، و منذ زمن أمه و التي كان أسيادها قد أكلوها في أيام المجاعة – كان هناك أنواعٌ كثيرةٌ من هذا النوم – و كلّ يومٍ كانت تصحو على

---

[1] الريشات الكبيرة .

ضجّةٍ كهذه . و كان من الغريب فعلاً أنّ الحيوانات و الناس لم يكن لديهم على الأقل خلال الفصل السيئ إلاّ المكان نفسه .
و منذ أيام جدّه ، الكلب الأول ، و التي كانت حياته البائسة تبدو قاسيةً في البداية ، كان في الواقع يهمل مهمته ككلب لدرجة أنه لا ينبح على كلّ قادم ٠
لكن عدائية الماعز المخادعة بالإضافة إلى انشغال الدواجن المرعب كاد أن يخيفه ، كذلك فإن سوء معاملة باتوالا و صدّ ياسيغنجدا قد جعلوه يستوعب[1] كما علّموه واجباته الأساسية ٠
لقد أصبح الآن كلباً كما ينبغي أن يكون ، فقد تعلّم كيف يكون فظّاً و كيف يدافع عن أسياده و كيف يكون خطيراً ، و بأقلّ نداء و عندما لا يتحرك فوراً كان يعلن ريبته٠ فعندما كان يرى رجلاً أبيض أو رجلاً يضع قلنسوةً على رأسه[2] أو جندياً[3] ، كان يهرب بمجرد أن يتلقى ضرباتٍ منهم ، لقد اكتسب ذكاءً و حكمةً٠ عندما كان ينهض ليس معناه أن أحداً ما قد أزعجه أو أنه متعب من كثرة نومه ، في البداية لم يكن ينام كفاية٠كان يغرق ،بما يتعلق بهذه النقطة ، في أفكار سيده باتوالا٠
ثم بعد ذلك ٠٠٠ لم يكن يستيقظ إلاّ لأنه ينبغي عليه أن يستيقظ ٠ في الواقع ، إنّ الكلب في حياة زعيم القرية أو حياة أيّ رجلٍ أسود لا تساوي إلاّ صهيل الحصان و هو يجترّ العشب ٠ دجوما هذا عندما لا يُضرَب ، و هو في زمنِ المجاعة يؤكل[4] أو على الأقل يُخصَى من باب التسلية أو تُقطَع أُذناه ، إنّ الكلب لا يساوي شيئاً٠ و إن أُستخدِم قليلاً فهو يفيد بإثارة الطريدة و ملاحقتها ، و فيما عدا ذلك فهو عديم الفائدة و يُستخدَم فقط لكي يُضرَب ٠

---

[1] الدماغ ، ذكاء٠
[2] قلنسوة لها أصل عربي ٠
[3] جندي في جيش مؤقت
[4] يؤكل ٠

منذ زمنٍ طويل لم يكن من شيء في عقل الرجال السود غريباً على دجوما ، ذلك الكلب الأحمر الصغير ذو الآذان المدببة جداً ٠ فمنذ زمنٍ بعيد لم يكن ليجهل أن أحداً ما لن يفكر بأن يطعمه فيما لو أطال نوم الضحى في كوخ باتوالا ، فهو لم يكن لينهض إلاّ اذا تضوّر جوعاً ، فالجوع فقط هو من يحفّزه على النهوض من مكان نومه .. يتوجب عليه أن يجد ما يسدّ به رمقه بسرعةٍ كبيرةٍ ، إنْ لم يكنْ قد مات من جوعه أو تغذى على جثة دوبليه العقاب و أبنائه ذوي الرقاب العارية ٠

ألم يكن يدري بأنّه يجب عليه تناول روث الجديان عند حلول الفجر ، ذلك الذي لايزال يعشق الحليب و له نفس الطعم ؟ إنها وجبةٌ مغذيّةٌ بالنسبة لكلبٍ يتضوّر جوعاً٠

روث ؟ سيجد منها بالتأكيد القليل في كل مكان ، فليس من المستحيل أن تكون الخنافس[1] قد بدأت عملها فيه ٠ كان الجو يسوده الكثير من البرودة و الضباب ، كان بإمكانه و بشرط أن يحالفه الحظ أن ينزع بيوض الدّيك الفرعوني من العش خلال شروده الصباحيّ ٠ يا لها من سعادةٍ عارمة ! و مع ذلك ينبغي عدم الاعتماد على ذلك ٠

لعق دجوما بطنه و هو واقفٌ و حمحم بحيويةٍ ثم تثاءب عدّة مرّاتٍ و تمطط و تقدم عدّة خطواتٍ برخاوةٍ إلى الأمام و توقف ثم جلس على مؤخرته و نظر يمنةً و يسرة و كأنه خائفٌ من الخروج ، ثم زفر زفرةً طويلةً و جرّ نفسه متأرجحاً على أقدامه نحو الباب ، و ذيله ملتفٌّ نحو البطن و عيناه غائرتان و فمه نحو الأسفل ، حزينٌ و تعيس و غير مكترثٍ بشيء ٠

لقد تعلم بحكم الضرورة أن يخفي أدنى مشاعره و أن يدّعي تعبه اللامنتهي و ملله غير المحدود ، لقد علمته الخبرة بأنه من

[1] خنافس تعيش في براز الثدييات ٠

الحكمة أن يتصرف بهذا الشكل ، فكلّما كان الكلب فرحاً أثار انتباه الإنسان. لقد أعطى دليلاً على أن مزاجه جيّدٌ حتى يحفّز باتوالا على متابعته إن اقتضت الضرورة فلا يضيع عن نظره ، و هذا ما كان يجب اجتنابه مهما كلّف الثمن ، و إلاّ وداعاً لكلّ ما يمكن اغتنامه صدفةً أثناء التوقف . سار قليلاً إلى الخارج متذمراً من عدّة شتائم كانت على لسانه ككلب . كان باتوالا يفكر بغموض ، فالماعز و الدجاج و البطّ و الكلب قد غادروا بيته ، فماالذي ينتظره حتى يقلّدهم ؟

اقترب زمن الغانزاس[1] . خلالها تجري طقوس ختان الصبية الصغار و ختان الفتيات في طقوسٍ سريةٍ . لم يكن لديه متّسعٌ من الوقت لكي يبدأ بالدّعوات من أجل ذلك . سوف يتقاعس عن أداء واجباته فيما لو تأخر ، وعلاوةً على ذلك ، ألم يُكلَّف بترتيب إجراءات الأعياد التي يُحتَفل بها بهذه المناسبة حسب العرف ؟ و من العبث التفكير بأنّه قد يفوّت عليه شرف حضوره مع واحدٍ من كبار الموظفين في مناسبات الختان في المنطقة .

نهض و هو يحكّ جسمه ، و ذلك بعد أن فرك عينيه بظهر كفّه و مسح أنفه بأصابعه ، حكّ تحت إبطيه و فخذيه و رأسه و مؤخرته و ظهره و ذراعيه . إنّ حكّ الجسم هو تمرينٌ ممتاز ، فهو ينشّط جريان الدم فيه ، و هو بمثابة متعةٍ و دلالةٍ لها قيمة لا يمكن نكرانها. فما من كائنٍ حيٍّ لا يحكّ جسمه عندما يصحو من نومه و يلتفت حوله . إذاً و كمثالٍ يجدر اتباعه كونه طبيعياً و هو : من لا يحك جسمه لا يمكن أن يصحو بشكلٍ جيد .

لكن إذا كان حكّ الجسم جيداً فإن التثاؤب أفضل منه ، لأنّ التثاؤب هو طريقةٌ جيدة لطرد النعاس من خلال الفم و الأنف ،

---

[1] مسارات (احتفالات كانت تقوم لاطلاع عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة و الجمعيات السرية . و هنا يعني حفلات الختان كما ذكرت سابقاً .

هل يمكن أن نشكّ بذلك ؟ كلٌّ منّا يستطيع أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة فوق الطبيعية ٠ و هي تحدث خصوصاً خلال فصل الليالي الباردة و الصباحات الرطبة ٠ كلّ الناس تزفر هذا النوع من الدخان دون رائحتها الصادرة عن القلب و الرئتين ، هذا الدخان المنبعث يؤكّد على أن النوم ما هو إلا نارٌ سريّة ، و هو يعرف بماذا يتمسك بها بناءً على ذلك ، و الساحر التيمي لا يتعلم من أحدٍ أيّ شيء٠

ثم لنفترض بأنّ النوم لم يكن ناراً داخلية ، فمن أين يأتي الدخان في حالة الشجار ؟ هل هناك دخانٌ بلا نار ! إن كان الجواب نعم فيجب أن نراها٠

إن التثاؤب من هنا و حكّ الجسم من هناك هما حركتان بلا أهميّة ٠

يتابع باتوالا فعل ذلك بلا انقطاعٍ و هو يُصدِر عدّة أصواتٍ٠ و يُعد هذا عادةً قديمة في بلده ، فقد ورثها عن أهله ، و أهله بدورهم ورثوها عن أهلهم٠ إنّ العادات القديمة هي أفضل العادات ، و غالبيتها تُبنَى على أساس الخبرة التي لا يمكن لنا أن نراقبها كثيراً٠

هكذا كان يفكر باتوالا ، فهو محافظٌ على العادات البالية، فقد بقي مخلصاً للتقاليد التي علّمه إياها أجداده و لكنه لم يكن يتعمق في ذلك أبداً ٠

مختصراً مونولوجه الذهني ، وذلك بالاكتفاء بأن يعلّم أصدقاءه كيف يتصرفون بعيد الغانزاس و إعادة تجديد النار التي أيقظته من نومه ، و عندما تصحو ياسيغيندجا كانت تفعل الشيء نفسه٠ فالرجل هو الرجل والمرأة هي المرأة ، كلّ واحدٍ يعيش لنفسه و ليس للآخرين٠ و هذا على الأقل ماتعلّمه٠ عندئذٍ يخرج و لكن سرعان ما يعود إلى بيته ، فما إن وضع أنفه في الخارج حتى مّسته البرودة٠ لكنّه لا يرتدي كالمعتاد إلاّ سروالاً

قصيراً . ولذلك فقد دخل إلى بيته . كان الضباب كثيفاً لدرجة أنّه من غير الممكن رؤية الأكواخ التي ترقد فيها زوجاته الثماني مع أولاده منهنّ .

قرفص أمام النار و أسنانه تصطكّ ، و هذه الوضعية مشابهة لكل الرجال السود ، و هي تتمثل بالالتفاف على النفس و سحب الركبتين إلى أعلى الذقن ، و جعل الذراعين تلتفان على الصدر ، بحيث تكون اليد اليسرى على الكتف الأيمن و اليد اليمنى على الكتف الأيسر بينما تلمس المؤخرة الكعبين.

إنّ حرارة النار قد نشّطت أعضاءه الخدرة[1] .آهٍ ! كانت الحياة جيّدة .

كانت يداه على اللهب و هو يطلق في الهواء دندنةً ، أغنية مشهورة يدخل عليها بالتتالي كلماتٍ و مقاطع ، في هذه الأغنية هناك كلامٌ كثير عن القادة البيض و كلامٌ أكثر عن النساء .

خُلِقَ الرجل من أجل المرأة
و المرأة من أجل الرجل
و المرأة من أجل الرجل
فهنيئاً
للرجل

إن كلمة (ياسي) و التي تعني (المرأة) تتكرر كثيراً في اللازمة و هي تُذكّر بشكلٍ طبيعيّ بياسيغيندجا. و من خلال جملة الأفكار الطبيعية ، كان يريد أن يقوم بوظائفه الذكورية ، التي حتى الآن لم يفته ممارستها في كلّ صباح قبل أن ينهض .

و بما أن ياسيغيندجا كانت معتادةً منذ زمنٍ طويلٍ على هذه الألفة اليومية و على الرغم من أنها لا تزال نائمةً ، فما من داع لكي يوقظها فهي تستيقظ بمفردها. وفي الآفاق حيث تشرق

[1] فاترة الهمة .

الشمس عمن غربت عنهم ، تُبدد الريح الضباب و تجزّئه ٠ وفي هذه الأجواء الضبابية التي تغطي المرتفعات ، تزقزق العصافير من الببغاوات إلى الشحارير المعدنية اللون ، ومن طيور أم ذعرة إلى بقّة الخشب ، ومن الطوقان إلى الزرازير ، ومن طيور الوقواق الافريقية إلى الغربان٠ كانت طيور الحجل مجتمعةً على أغصان الشجر المنخفضة ، و كانت تشدو بأغانٍ ترحيبة ، و كانت طيور الترغلة تنطلق من الأرض ثم تتجه نحو السماء التي تبدو تسحبها للأعلى نحوها ، والدّيكة تقف منتصبةً ، وهي تطلق صياحها نحو الشمس٠ وكانت الدجاجات تهرب ، وهي تضع رأسها تحت أجنحتها ، ما إن تشاهد الشمس تشعشع من بين الضباب ، أمّا العقبان فقد كانت تطير على ارتفاعٍ منخفضٍ في هذا الجوّ المائل للزرقة ٠

أمّا النسيم الرطب فيأتي ويهرب ليعود مداعباً ، وبذلك يجعل الأشجار تُحدِث اهتزازاتٍ[١] موسيقيةً بفعل حفيف آلاف الأوراق الرطبة، و تهتزّ معها قمم أشجار القابوق[٢] العالية ، و كان قصب الخيزران يُصدِر أنيناً عندما تتصادم سيقانه المرنة ببعضها البعض٠

وأخيراً هبّت نسمة ريحٍ بددت فيها سحابات الضباب لكي تَبزُغ الشمس و تسطع و تضيء٠

ومن الجرح الذي اتّسع هناك بفعل الشمس الحمراء ، كانت تنبعث سكينةٌ مدهشةٌ تمتد من مكانٍ لآخر حتى تبلغ مسافاتٍ كبيرةً من الوحدة ٠

غير مكترثٍ بنعمة الشمس ، وهو جالسٌ على الأرض على بعد مترين من كوخه ، بالقرب من النار التي أشعلها ، كان القائد

---

[١] اهتزاز

[٢] أشجار عالية من الفصيلة الخبازية تنمو في المناطق الاستوائية ٠

باتوالا ، ذو الفكر الحرّ و الخالي ، يدخّن غارابابو أو ما يفضّل الآخرون تسميته غاتابا و بكلّ بطءٍ و حكمةٍ ممسكاً بغليونه القديم ٠

كان النهار قد جاء ٠٠٠

٢

كان يدخّن و ينفث بنسماتٍ قصيرةٍ في الهواء ، و ينظر بطرف عينه ، وكان يطلق من بين أسنانه المصقولة صفيراً[١] مصحوباً بلعابٍ يتبعه زفيرٌ عميق .

كان يدخن هكذا و لفترةٍ طويلةٍ ٠ و كلّما كانت الشمس ترتفع في السماء ، كلّما اشتدت حرارتها ، و لكنّه لم يكن يكترث لأمرها ، وهو معتادٌ على أن يكون بحماسه اليومي٠

كان يدخن ، وكانت الريح تحرّك أوراق القابوق و تهزّ أغصانها و تحرك براعمها الغضّة الفتيّة٠ وكان صعود نسغ النبات يوسّع الجذوع في الأماكن المتشققة ليرشح منها الصمغ الذهبيّ الأحمر و من اللحاء الحيّ المتشقق ٠

أمّا النباتات المتسلقة والثعابين الخطرة فقد كانت تلتفّ على نفسها بشكلٍ مبهم وكانت بتمددها هذا تشكّل جسوراً بين الأشجار ، كما كانت روائح التربة الساخنة العنيدة و الأعشاب الكثيفة والأشجار و رائحة الخلجان النتنة و نكهة النعناع البريّ تخيّم على النسيم الذي كان يبعثرها ، وكانت العصافير التائهة في غمرة هذا الحماس النباتيّ تحاول أن توصل صرخاتها المبعثرة ، بينما و بشكلٍ ضعيف كانت العقبان السوداء تأنّ وهي تحلق في أعالي السماء الزرقاء ٠

[١] صفير ٠

و خلف نهر البمبو أو البامبا ، كان أحدهم يغني :
إي هي ٠٠٠ يابا ٠٠٠ هو !
كان يجب أن نعمل في مكانٍ ما هناك ، و كلّ أغنيةٍ يتطلب إيقاعها جهداً ٠
كانت الأغنية الرتيبة تبدد السكينة السائدة ، وعندما توقفت ، لم يعد يُسمَع إلا خشخشة أشجار الدغل اليابسة بفعل الشمس ، و صوت طقطقة أشجار الخردلية[1] و التمر الهندي[2]، و لم نعد ندرك إلاّ أصواتاً خافتةً تبدد قليلاً صمت المكان ٠
كانت ياسغيندجا تُحَضّر نبات المنيهوت اليومي ، وكانت تغلي في قدرين آخرين البطاطا الطرية و نبات الرجلة البريّة ٠ وعندما همّ زوجها بالطعام ، أخذت غليونه الذي تركه ، و أخذت بدورها تدخّن وهي تراقب بطرف عينها شواء ديدان القزّ اللذيذة الدسمة ، بينما كانت بقية النسوة الثماني منشغلاتٍ بزينتهنّ الشخصية ، كل واحدةٍ منهنّ في كوخها ٠
ولم يكنّ يتصنّعن بفعل ذلك أبداً ، وماذا يفيد ذلك ؟ خُلِق الرجل والمرأة ، كل منهما من أجل أن يُكمّل الآخر ٠ ألا نستطيع يا ترى أن نتجاهل بماذا يختلفان ؟ و لماذا يتضايقان أحدهما أمام الآخر ؟
إنّ الخجل من الجسد عبثي هو ، و الحشمة ما هي إلاّ نفاق ٠
فنحن لا نفكر بإخفاء شيءٍ إلاّ كان هو الشرّ الذي نقترفه أو الفعل الناقص ، و إنّه لمِن غير المجدي أن نحاول إخفاء السحر الجنسيّ الذي منحنا إياه الربّ الخالق ، سواءَ كانت لائقةً أم زهيدة ، فنحن كما نحن ٠ تنقّل باتوالا من المنيهوت إلى ديدان القزّ و من ديدان القزّ إلى البطاطا الطريّة ، و بين كلّ لقمتين أو

[1] نباتات يابسة و من الفصيلة القرنية ٠
[2] أشجار ضخمة تعطي وروداً كثيرة تتدلى في عناقيد ٠

ثلاث كان باتوالا يرتشف جرعةً أو جرعتين من البيرة المصنوعة من الذرة البيضاء المخمّرة ، و عندما شبع ، أومأ بحركةٍ إلى ياسيغيندجا يبدي فيها رغبته بالتدخين أيضاً٠ و منذ زمن بعيدٍ و بعيدٍ جداً ، كان ينفث من جديد عدّة نفثاتٍ قصيرةٍ يتبعها بزفراتٍ عميقةٍ من تبغه على المدى البعيد ، وهو راضٍ كونه بدأ نهاره من بدايته ، فقرر فجأةً أن يتفحّص أصابع قدم رجله اليُسرى٠ كانت هناك براغيث تستقر بشكل دائمٍ بين هذه الأصابع ٠ يا لها من قذارة !!! يا لها من براغيث !

و الزنجيّ الطيّب و المسكين مُجبَر على تقديم جلده كحاضنةٍ لها ، و إلا ستقضي عليه٠ و هذه الدويبات الصغيرة تستغلّ إهماله لكي تبيض على أيّ جزءٍ من جسمه ، و على وجه الخصوص بين أصابع قدميه ، لتضع بيوضاً كثيرةً أكثر مما تلده النساء في قريةٍ مكتظةٍ بالسكان ٠

أما عند البِيض ، فالوضع مختلفٌ ، فما من برغوثةٍ واحدةٍ تتجرّأ على لمس أجسادهم الطريّة الليّنة٠ بعدها لا يشعرون بذلك إلاّ عندما يُنهي الخادم الأسود[1] كل أعماله ، ثم يزيل القملة الصغيرة من الانتفاخ الدهني الموجود على جسمه و الذي اختارته البرغوثة كمسكنٍ لها ٠

ولكن ، بماذا يفيد طرح هذا الموضوع ؟ فكلنا يعلم و ليس من اليوم فقط ، بأنّ الشعوب ذات البشرة البيضاء هم أكثر نعومةً من السود ٠

وكمثالٍ من بين ألف مثال : ولا أحد ينكر أنّ البيض ، وبحجّة دفع الضرائب يرغمون السود و هم بعمر الزواج على حمل رُزمٍ ثقيلةٍ من مكان تشرق فيه الشمس إلى مكانٍ آخر تغيب فيه و بالعكس ، تستغرق المسافات يومين أو ثلاثة أيام٠ وبغضّ النظر

[1] خادم أسود لرجل أبيض ٠

عن وزن الرزم التي يسمونها صناديق. أليسوا هم من ينحنون بتأثير الحمل و الشمس و المطر ؟ أليسوا هم من يعاني ؟ و بالنتيجة فهم لا يكترثون ، فهم يعيشون في ظل التقلّبات الجوّية السيئة بشرط أن يكون لديهم مأوىً . كما يستاء البِيض من لسعة الذباب و هم يخشون من السرطان الترابي والعقرب الأسود الحلقي السام ، الذي يعيش بين السقوف المهدمة و تحت الحصى و بين الأنقاض. وبكلمةٍ واحدةٍ ، كلّ شيءٍ يقلقهم . وكأنّ من يكون أبيض يتوجب عليه أن يخشى من كلّ شيءٍ يعيش أو يزحف أو يتحرك حوله .

معشر البيض ، آهٍ من معشر البيض ...

ألا نؤكّد أن أقدامهم لم تكن إلاّ نجاسةً ؟ يا لها من فكرةٍ بأنْ نضعهم في أجسادٍ سودٍ و بيض أو بلون الموز الناضج ! حتى لو أنّ رائحة أقدامهم النتنة بقيت تنز عفونةً ، لكن كلّ أجسادهم تنبعث منها رائحة الجثث. و إن اقتضت الضرورة نستطيع أن نقبل حماية أقدامنا بالجلد الفاخر ، و نتجنب تمزقه إن مشينا على نتوءات الهضاب الصخريّة الحمراء [1] . و لكننا نحمي عيوننا بالنظارات البيض أو السود ، أو الملونة بلون السماء الصافية عندما يكون الجو جميلاً أو بلون بطن طير بقّة الخشب ، و نغطّي رؤوسنا بالسلال الصغيرة أو بثمار الدبّاء المفردة ، و هذا هو الربّ الخالق نغاكورا الذي يُفقِد الصواب .

و بازدراءٍ مباغت رفع كتفيه ، وحتى يشرح فكرته بشكلٍ أفضل بصق و قال : أها !!.

لم يكن البيض أناساً كغيرهم ، فقد كانوا يعرفون كلّ شيء و أكثر من ذلك. و كلّ يومٍ جديد كان يُثبِت ذلك . كان بعضهم يُحضر من فرنسا آلاتٍ غريبة . كان يكفي أن تُدار قطعةٌ خشبيةٌ

[1] صخر أحمر .

أو حديديةٌ في بطن هذه الأدوات السحريّة حتى تبدأ الكلام أو الغناء كالبشر البيض الحقيقيين و لكن دون أن نلمح شخصاً و دون معرفة لماذا و كيف يصدر ذلك الصوت منها. وغير أولئك البيض كان هناك أناس آخرون – و قد رأى ذلك بأمّ عينيه – كانوا يبتلعون السكاكين .

ومن جهةٍ أخرى ، لم يكن هذا الحدث موضوعاً للمناقشة ، ألم يكن كلّ أقليم البامبا والأقاليم الأبعد منه تعرف على الأقل شيئاً ما عن شهرة ذلك الضابط المخيف الذي يُدْعى موروكامبا و الذي كان يضرب بالسيف و هو الذي هدّأ الفتن بين قبائل الباندا ؟

وغيرهم من الناس أخيراً ، كان باستطاعتهم أن يراقبوا من مكانهم و دون أن يتحركوا كلّ المناظر الطبيعية المأخوذة مسبقاً كما لو كانت بعيدة عنهم بوساطة نظّاراتٍ محاطةٍ بأنابيب متحركة .. أما ذاك الذي يُسمى- الدكتورو – و هو لقب أعطاه البيض لمن يعمل بالسحر في بلادهم ، يستطيع أن يجعلك تتبوّل بولاً أزرق ! أزرق – عندما تكون تلك هي رغبته التي تمتِّعه .

أليس ذلك مريعاً ؟ ألم يلحظ ذلك في الأيام الماضية ، عند مرور القائد العسكري الجديد ، ألم يلحظ ذلك عندما نزع جلد يده ذاك الذي لا يشبه باعتقادي إلاّ كلّ الجلود المعروفة سابقاً.

كان يفعل ذلك وأمامه دون أن يتألم أبداً ، لو كان تألم لصرخ ، وكونه لم يصرخ فهو بالتأكيد لم يتألم. هكذا كانت طرائق البيض ، كما كانت طريقة البيض بالجري على الطرقات من خلال الجثوّ على واحد من شيئين مدوّرين و بلاستيكيين و الذي يُدفَعُ مرّةً بالقدم اليمنى ، و مرةً أخرى بالقدم اليسرى ، و تلك هي لعبة المطاردة دون أن يتوصل من يطارد أحداً لأن يلتقط الآخر.

ألا يؤكّد ذلك أيضاً بأنّ بعض البيض كانوا يتمتّعون بميزةٍ مدهشةٍ ألا و هي امتلاك ذراعين و عينين و أطرافٍ و أسنان يمكن فصلها عن الجسد ؟ ألم يكن بمقدورهم أن يضعوا العين و الذراع

و السيقان أو الأسنان على الطاولة ، و ذلك لجعل الآخرين يرونها ، ثم يعيدونها كلاً إلى مكانه و كأنّ شيئاً لم يحصل ، ألم يكن هذا أبسط شيءٍ في العالم ؟

أوه .. ! لم يحدث مرّةً لمعشر السود ، السحرة أو المشعوذين أن فعلوا شيئاً مماثلاً و لم يكن بمقدورهم أن يقوموا بهذه الأعاجيب .

وأيضاً و شيئاً فشيئاً ، و على الرغم مما هو به ، حلّ الإعجاب مع الخوف مكان الاحتقار .

وأصبحت الشمس في كبد السماء ، و أعلنت الشحارير كالعادة بدء الحدث المشرق .

لم يكن صوت زيز الحصاد يزعج المسافات المترامية إلا بشكلٍ ضعيف حيث يبدو كلّ شيءٍ يغطّ في نومٍ عميقٍ و متعبٍ من الضوء . و كانت الزوبعات الثلاث الكبيرة و التي تهب في نفس اللحظة من النهار تعصف بعنف ثم تصمت فجأة . و كانت أوراق أشجار القابوق تتحرك في هذه اللحظة ، وما من نسمةٍ تثير تموّج الأعشاب الضخمة بفعل مداعباتها المتكررة ، و كان الدخان يتصاعد في أعالي السماء ، كما كان صوت زيز الحصاد يتصاعد مغتاظاً و مهلوساً و نهماً .

كانت هذه هي اللحظة التي يختارها الزنوج ليعملوا. توجّه باتوالا بخطواتٍ بطيئةٍ نحو مرتفعٍ يطلّ على سهولٍ قريبةٍ . كان هناك ثلاثة جذوع أشجارٍ مختلفة الحجم ، اقترب منها بقلبٍ بارد و جمع مطرقتين كانتا على الأرض ، و رفعهما في الهواء ، ثم هوى بهما على أكبر جذعٍ من بين الثلاثة ، بضربتين متباعدتين و رنانتين .

ثم ساد الصمت الذي بدده بضربتين اثنتين جافتين و قصيرتين و تبعتهما قرقعة الطبل الحادة و الحاسمة السريعة و الملحة و

التي انتهت ببطءٍ و بلا تمهيد ، على أصغر الجذوع بإيقاعٍ سريعٍ معزز فجأةً بالعلامة النهائية للنداء .
وهناك أيضاً ، و في الأماكن البعيدة و في كل الجهات ، على اليمين و على اليسار، ومن الأمام و الخلف ، تسمع أصواتاً متشابهةً و أصوات طبولٍ مدوّيةٍ و كأنّها تردّ على نداءٍ مسموع ، فبعض هذه الأصوات يكون ضعيفاً ومتردداً وغامضاً ومبهماً ، و بعضها الآخر يكون مفهوماً و صداه يدوّي من جبلٍ إلى آخر .
هنا ينتعش الغيب اللامنظور ليقول :

– لقد ناديتنا ، هذا ما قالته الأصوات الصادرة عن الطبول ... لقد ناديتنا ...

– لقد سمعناك .

– نحن نصغي إليك ، تكلم .

تكرر الأماكن مرّتين الأصوات المضطربة أو الواضحة نفسها.
وعندما ابتلع الأفق الصوت الأخير ، أجابهم باتوالا.
في البداية كانت الكلمات تخرج ضعيفةً ، لقد كانت تبدو وكأنّها تُعبّرعن الفتور الرتيب و اليوميّ و عن الوحدة التي لا يكدّرها شيء ، ولا يفرحها شيء و عن الخنوع أمام القدر واللامبالاة الباردة .
كانت مطرقات الطبول تتنقل بشكلٍ متعاقب من جذع إلى آخر من الجذوع الثلاثة .
وكان يصدر عن ذلك غناءٌ منتظمٌ و رتيبٌ مرهق ، يشبه يوماً عاصفاً قبل هبوب العاصفة .

يصبح الغناء أكثر بهجةً ، ثم لا يلبث أن ينقطع فجأةً ، ثم يعود و يزداد مداه ، فكان يرتفع بشكلٍ دائمٍ و مستمر .
كان باتوالا سعيداً و رغم العرق الذي يتصبب منه أخذ يرقص شيئاً فشيئاً ٠
كان رجاله وزوجاتهم و أولادهم وأصدقاؤهم و أصدقاء أصدقائهم و الزعماء الذين شرب من دمهم كما هم فعلوا معه٠ كان يريد حضورهم جميعاً في البامبا خلال تسعة أيام ، للمشاركة في الرقصة الكبيرة [1] التي تقام بمناسبة حفلة الخمور و الختان .
إنّ الأصوات التي كانت تصدر في أيام المطر كانت تحمل لهم المعجزات ٠
كان هناك الطعام والشراب والنقاشات المملّة والأعياد كما وكانت هناك رقصات اليانغبا٠
وليست رقصةً واحدةً ، بل كلّ الرقصات ، وليس فقط رقصة الفيل والرقص بالرماح القصيرة ورقصة المحاربين – بل وأيضاً وعلى وجه الخصوص رقصة الحب التي ترقصها قبائل السابانغا٠[2]
هنالك الطعام والرقص ، والرقص والشراب ... نعم !
المنيهوت والبطاطا و الدرنات[3] ونبات الإنيام والقرع والذرة !
نعم ! خميرة الذرة البيضاء و الفليفلة و العسل و السمك و بيوض تمساح الكايمان ! قد يأكلون من كل ذلك ومن أشياء أكثر من ذلك أيضاً ، و قد يشربون من كل ذلك و من أشياء

---

[1] رقص طقسي
[2] قبيلة باندا
[3] درنات مشابهة لحبات البطاطا ٠

أكثر من ذلك أيضاً ، قد يأكلون على صوت الأبواق العاجيّة[1] وآلة البلافون ٠
نعم يجب الحضور !! إنه عيد الغانزاس ... حيث لا يجري ختان الفتيان و الفتيات إلاّ مرّةً واحدة كلّ اثني عشر شهراً قمريّاً ، كم كنا سنضحك و سنضحك !
كانت الأصداء تزخر بالفرح لهذا الحديث و كانت الضحكات و الدعابات مستمرةً ٠
عندما صمت ، ساد انتظارٌ ثقيل ، لكنه لم يدُم طويلاً ، لأنّه و بعد ندائه الأول ، وكلّ شيء حوله ومن بعيد جداً ، عادت الأحاديث من جديد على وقع طبولٍ مخفيةٍ ٠ و على الرغم من بعد من يقرع الطبول ، إلاّ أنّه كان بالإمكان سماع الإيقاعات البهيجة المخفيّة ذاتها في نهاية كلّ جملة ٠

- لقد أصغينا إليك ، أصغينا جيداً ٠
- لقد سمعناك و فهمناك ٠
- أنت أعظم رجلٍ في قبيلة الباندا[2] يا باتوالا ٠
- أنت أعظم من أي قائدٍ عظيم يا باتوالا ٠
- نحن قادمون ، بالتأكيد ، قادمون ٠
- و سيكون أصدقاؤنا هنا ٠
- و ستكون هناك مأدبةٌ فاخرة ٠٠٠ يا لها من سعادةٍ ! إذاً سوف نتسلّى !

---

[1] آلات نفخية مصنوعة من قرون الفيل ٠
[2] رجال من قبيلة الباندا

– و سنشرب كما تشرب الثقوب ٠

– أي كما يفعل الناس البيض ٠

– و ليس كما يفعل رجال الباندا الحقيقيون ، لأنّهم هؤلاء يشربون أكثر من ٠٠٠

– و سنرقص ٠

– و سنغني ٠

– و سنظهِر للنساء في ما بعد ما يمكننا أن نفعله بهنّ ٠

– تستطيع أن تعتمد عليَّ .....

– عليّ ..

– عليّ .

– أوورو .

– أوهورو .

– كانغا .

– يابي نغي .

– ديليبو .

– توغومالي .

- يابادا .

- كلّ رجال الباندا سيكونون هنا .

- نحن قادمون ... نحن قادمون .

- نحن قادمون ... نحن قادمون .

ثم كتم الأفق الإجابات الأخيرة .

مشتاقٌ لتفحّص السلال[1] التي غطّسها في المياه ليلة البارحة ، اندفع باتوالا نحو ملتقى نهري البامبا والبومبو و هو مزود برمحين قصيرين و بجعبة مليئةٍ بالنبال[2] الشائكة و بخرجٍ معدنيّ من جلد الجدي .

أينما اتجه ، وحتى لو كانت المسافة قصيرةً ، يجب عدم نسيان أخذ الخرج والتوشّح بالحمّالة ، فهي ستسمح بإخفاء الكثير من الأشياء ! و منها الخبز والمنيهوت وغيرها من المأكولات ،

ومع ذلك ينبغي ألاّ يأخذ لا أكثر و لا أقلّ مما هو بحاجته و يمكن أن يحدث أيّ مكروه له الآن وعلى حين غرّة ، أليست معه رماحه القصيرة و قوسه و سهامه ؟ كان يستطيع أن يسخر من الجوع بتناوله كلّ الكاتو الذي تزود به والذي كان يملأ به خرجه ، فموضوع الطعام لا يخصّ أحداً سواه فهو

---

[1] سلال يوضع فيها طعوم للأسماك .

[2] سهام صغيرة .

يأكل على هواه ٠ وليس وجود أوراق البيمبي عبثياً فهي بقدرتها على تخدير السمك توضَع في أعالي الأماكن التي يمرّ منها٠

وفي طريقه ، كان باتوالا يتفحص الأرض ، وهذه كانت إحدى العادات الكثيرة التي ورثها عن أجداده٠ و كان كلّما تقدم في العمر ، أدرك أكثر فعاليّة هذه العادات ٠

لم يكن يبدو على الناس البيض أنهم يستوعبون أهمية معرفة الأرض التي يطؤونها ،

فالحصى تجرح الأقدام ، و الوحل يساعد على السقوط على الأرض ٠

وإنّه لمن السهولة و اليسر مع القليل من الانتباه تفادي الجروح و السقوط ٠ نستطيع بكلّ الأحوال أن نجعل ذلك نادر الحدوث ، فالوقت لا يضيع بالنسبة لمن يقوم بأدنى جهد٠ وزيادةً على ذلك ، فقد أثبتت التجربة أنّ الوقت لا قيمة له وأنه ليس لنا إلاّ أن نفوّض أمرنا للحكمة ٠

بالكاد توارى باتوالا عن النظر ، وهو في طريقه إلى ملتقى نهري البومبو و البامبا ، عندما ظهر بيسبينغي في الدغل بغتة و كأنّه شيهمٌ يخرج من جحره ، ويتجه نحو نساء صديقه٠ كان بيسبينغي شاباً ذا عضلاتٍ و كلّه حماس و قوةٌ و وسامة ، وحتى في زمن القحط ، كان يجد عند باتوالا ما يأكله و يشربه ٠

في الواقع ، كان هذا الساحر التيميّ العظيم يعامله بمودةٍ خاصة ، و زوجاته أيضاً. فثمان منهنّ كنّ يؤكدنَ له حرارة صداقتهنّ التي يشعرنَ بها تجاه شخصه .

أما ياسيغيندجا الحسناء ، فقد كانت أقلّ خضوعاً لأوامر الشخص الذي اشتراها مقارنةً بأوامر بيسبينغي .فهي كانت تعتبر أنّ محاسن الصدف قد تسمح لها قريباً بأن تُظهر لهذا الشاب الوسيم رغبتها به ، يجب ألاّ ترفض أيّة امرأةٍ رغبة رجلٍ و خاصةً عندما يشتهيها ، و هذا هو المبدأ الأساسي ، كما أنه قانون الغريزة الوحيد ، إنّ خداع الزوج ليس له أهميةٌ كبيرة اذاً ، أو بالأحرى يجب ألاّ يكون ذلك .فمن المألوف عند حدوث الخيانة الزوجية ، و بعد عدّة مناقشاتٍ طويلةٍ تقريباً ، يكفي أن تعوّض خسارة من يشتكي بهذا الخصوص ممن سبب هذه الخسارة .
عدّة دجاجات ، جديان اثنان أو ثلاثة جداء ، عدّة بيوض في فترة الحضانة أو زوجٌ من الوزرات المستعملة تقريباً للّباس ، و كلّ ذلك من أجل أن تسير الأمور بشكلٍ جيد .
و لكن ، و لسوء الحظ ، ليس الأمر كذلك عند باتوالا ، فهو ذو طبيعةٍ غيورةٍ ، حقودةٍ و عنيفة ، و إن اقتضت الضرورة ، فهو لن يتردد بأن يعتمد على عادات قبائل الباندا القديمة ليمحي كل من يجرؤ على اغتصاب أراضيه .و كونه حصل على نسائه بتضحياتٍ كبيرةٍ ، كان يريد أن يكون هو الوحيد الذي يضع ذريته فيهنّ .
لم تكن ياسيغيندجا تجهل ذلك أبداً ، و أيضاً لم يكن باتوالا يجهل مطلقاً بأن زوجاته الثمانِي كنَّ يكرهنها للغاية ، لأنها كانت سيّدة كلِّ نساء القرية ، وذلك بسبب سلطة زوجهنّ المشترك ، و لأنها كانت المفضلة لديه. كنَّ يراهِنَّ على الوشاية بها بأدنى خطأٍ ترتكبه - و كانت هي بدورها - تدافع عن نفسها بتوجيه التهم

إليهنّ دون رحمةٍ۰ و في نهاية المطاف ، ماذا سينتج عن كلّ هذه الاتهامات و هذه الخصومات ؟ من يستطيع التنبؤ بذلك ، فهي لا تسلّم نفسها لبيسبنغي إلاّ في اليوم الذي لا تتوقع فيه أن يشكل ذلك عليها خطراً۰
و لكن كيف يمكن استعجال ذلك اليوم الجميل ؟
ابتداءً من شهرين قمريين أو ثلاثة ، كان بيسيبنغي يباعد بين زياراته ، فهو الرجل الوسيم حقاً ! فقد بلغ العشرين عاماً .. إنها اللحظة التي يكون فيها الذكر جديراً بهذا الاسم الذي يخوّله بمطاردة النساء من الصباح حتى المساء ، كمثل مورو ، النمر و الظبي ... فجأة كَبُر ونما جسمه و كبرت عضلاته ، و كانت قبائل الياسيس تبحث عنه ، و ليس هو ، بل هنّ۰ من كنّ يحتفلن بالتناوب ببلوغه و بقوته۰ فكان بيسيبنغي ديكهم المفضل ، الذي أسهم بفصل الكثير من الازواج ! من هنا كانت تُولَد الخلافات اللامنتهية والمشاجرات المتجددة ۰
وبسبب الشكايات الكثيرة ضده ، فقد انتهى به المطاف إلى تهديد الضابط له بالسجن ۰
ومن جهةٍ أخرى ، فإنّ شهرته قد بلغت أوجها ، ولم يكن ليظهرإلا للاحتفال بها .
وكان الناس يحييون عودته المباغتة بصرخات فرحٍ متكررة ، وكانوا يسألون عن أسماء النساء اللاتي عرفهنّ مُنذ أن ترك البامبا ، هل يا ترى غامر معهنّ بما يوصله إلى عقوبة الموت ؟ لقد أقسم بألاّ يذكر أسماءهنّ .. ليكن ذلك ! و لكن لن يغفر له حرصه هذا إلاّ قصٌّ واحدة من هذه القصص الجميلة التي هو خبير بسردها ۰
ودون الحاجة لرجائه أكثر من ذلك ، تمدد على حصيرةٍ و بدأ يسرد قصة الفيل و الدجاجة ۰

في الوقت الذي كان فيه مبالا ، الفيل ، وغاتو الدجاجة يتكلمان ، رمت الدجاجة أولاً رهانها لتعرف من الأكول الأكثر بدانةً ٠
قال الفيل للدجاجة : يا دجاجة ، أنتِ صغيرةٌ جداً و ناعمةٌ و رقيقةٌ لدرجة أنّك لا تستطيعين أن تأكلي أكثر مني ٠
أجابت الدجاجة غاتو : حقاً ! هل تعتقد ذلك !! هل لأنك منتفخ و كبير البطن و دميم ، تعتقد أنّه من المستحيل بالنسبة لي أن آكل أكثر منك ؟

– و كيف لا أعتقد ذلك ؟ قال الفيل .. فأنتِ خفيفةٌ كريحٍ تتسرب من الشقوق ٠

قالت الدجاجة عندئذ : هكذا إذاً ! حسناً تعال عندي غداً صباحاً ، و في ساعةٍ مبكرة، و ستأكل كما تريد٠ و أنا سآكل قدر استطاعتي ، و سنرى في نهاية المطاف من منّا سيأكل أكثر٠

قَبِل الفيل الرهان و هو سعيد ... و في اليوم التالي ، و منذ الصباح الباكر، ذهب إلى المكان الذي حددته له الدجاجة وكانت هي تنتظره فيه ٠

بدأ الاثنان الطعام دون انتظارٍ و كلٌّ حسب قدرته ٠

بعد ذلك شعرت الدجاجة برغبةٍ بالاسترخاء عندما أصبحت الشمس في وسط السماء ، لذلك عملت مثل كلِّ الدجاجات التي تشعر بالحاجةٍ للراحة ، و ذلك بوضع إحدى رجليها تحت البطن ٠

سألها الفيل مندهشاً : ما هو السبب الذي يجعلك كسولةً بينما أنا مستمرٌ بالأكل ؟ و لماذا عندما تتكاسلين تضعين رجلاّ تحت بطنكِ ؟

أجابته الدجاجة بخشونة : بالنسبة لي فأنا لا آكل كفايتي كما تفعل أنت ! و إن كنت أفعل ذلك فلأني أجهّز نفسي لآكل إحدى رجلي٠ و أنا أُعلمك مسبقاً رأفةً بك ، لأنني إن لم أشبع من تناول رجلي فسوف أقوم بواجبي و ألتهمك قبل أن ألتهم قدميْ الثانية٠

عندما سمع الفيل هذا الكلام ، أُصيب بالذّعر ، ثم هرب و دخل إلى عمق الدغل ٠

و منذ ذلك الحين ، فإن الفيل يعيش في الأدغال و الدجاجة في القرى بين الناس٠

لقد نالت هذه الحكاية تهاني جماعية من الحضور ، ثم ما لبثت السخريات أن عادت٠

و دون أن يرد على مداعبات الجمهور ، كان بيسبنغي باسماً ، و أخذ غليون باتوالا و لفه بأوراق الناغو و هو ما يسميه البيض بلغتهم التبغ ، و وضع عليه الجمر

ثم اتكأ على حصيرته و هو ينظر بطرف عينه ، وبعدها أطلق عدّة نفخاتٍ قصيرةٍ .

– يا صديقي بيسبنغي ، أنت لا تحترز كثيراً من النساء اللاتي تعاشهرنّ – قالت له ذلك ياسيغيندجا - إن لم تتوخ الحذر ، فسوف يكون لديك الكثير من الأمراض الجنسيّة الوسخة و التي ستجعلك تشعر بالحرارة ، حتى لو كان الجو بارداً ٠

انفجرت قريناتها الثمان بالضحك ..

ههههه .. هي هي ..

– يا لهذه الفتاة ٠

– هههههه ، لم يبقَ غيرها لترشقنا بالكلمات الجميلة ..

و كنّ يضربن على أفخاذهنّ بقوة ..

– لكن المرض الجنسيّ هذا ليس خطيراً ، تابعت ياسيغيندجا و لكن سيتحول يا صديقي إلى مرضٍ أخطر يمكن أن تلتقطه ٠

تتابع متعجبةً ٠٠٠ ستتحول إلى أجزاء صغيرة .. في البداية ستكون منقطاً كالنّمر مورو٠ سيكون شكلك مرعباً و ستكون مغطىً بالجروح و لن يرغب بك أحدٌ ، و في ما بعد ستفقد أسنانك و شعرك و أصابعك و ستتحول لشخصٍ نتنٍ يتحرك ٠

من الأجدر بك أن تتذكّر- ياكليبو- الذي مات منذ ثلاثة أو أربعة أشهر قمريّةٍ على ما أظن ٠

وهنا عادت الضحكات من جديد . استمرّ الوضع هكذا حتى عاد باتوالا ، ثم أخذن يشرحن له أسباب هذا الضحك العام ، ثمّ أنضمّ إليهنّ و أخذ يضحك ، قد يموت بيسبنغي بالتأكيد كما مات الأبطال .

بلغت البهجة أوجها ، وأسرفن بالضحك ، وأصبحن يتبادلن ضرباتِ الأكفّ من كثرة الضحك ، وكنّ يضرْبنَ مؤخراتهنّ بالأرض ، ومن كثرة الضحك نزلت دموعهُنّ رقراقة ٠

يا له من رجل باتوالا هذا ٠

عندئذ غربت الشمس ، ثم ما لبثت أن انخفضت أصوات هديل الترغلات و صياح بقّات الخشب و نواح العقبان و الذعرات ، وشيئاً فشيئاً انخفض نعيب الغراب ..

حجب الضباب قمم الجبال ، و انخفضت الشمس بلطف ، ثم أوى الدجاج و الجديان و البطّ إلى البيوت ، و ساد بعدها صمتٌ طويل .

انتشرت الغيوم في السماء التي تركت فيها بقعاً ، واختفت الشمس تقريباً ، كانت تشبه بلونها الأحمر وردةً كبيرةً من العندم الهندي الأحمر ، وكانت تطلق أشعةً لا

تلبث أن تتبعثر كحزمٍ عريضةٍ و تنتهي أخيراً في فم تمساحٍ افتراضيٍ في الفضاء٠

بعد ذلك ، خضبت الخطوط العريضة الفضاء ألوانٌ متدرجة من تدرّجٍ إلى آخر، ومن شفافيةٍ إلى أُخرى .. تبعثرت هذه الخطوط في هذه السماء الواسعة ، وكذلك تدرجات الألوان و شفافيتها .. يطلق الحزن الموجع النجوم اللامنتهية في الفضاء الرحب و العديم اللون ، وتنبعث من الأراضي الحارّة سحبٌ ضبابيةٌ صغيرة ، و تتابع عطور الليل الرطبة مسيرها ، و قطر الندى يرمي بثقله على الدغل ، و تصبح الطرق الجبليّة متزحلقةً ويُعتَقد بأنّ الرائحة الضعيفة المنبعثة من النعنع البري تصدر طنيناً مع حشرات الجلاّلة والحشرات ذات الوبر .. وهناك صوت مدقّة الهاون ، ولا نعلم مصدره ، تهرس المنيهوت والذرة البيضاء والذرة الصفراء ٠ إنّ صوت دويّ الطبول ينشّط الناس ، ولا ندري من أين يصدر٠ ومن هنا وهناك كانت البيوت تُشعل أنوارها ، يمكن أن نخمّن ما في هذه الأكواخ حسب الدخان المتصاعد و حسب النوع ، فهناك أصوات نقيقٍ و صراخ أو عواءٍ وطقطقة .. وكان دجوما ، الكلب الأحمر الصغير ينبح ، ما هذا الذهول ؟ من أين تأتي هذه التعاسة ؟

و كأنه مركّبٌ مصنوعٌ من جذع الشجرة ُيصدر صوت احتكاكٍ عندما يمر من فوق أعشابٍ مائية .. ينزلق ببطءٍ عبر الغيوم ، إنه أبيض ، و ها هو يظهر ، إنه القمر إيبو.. لقد أصبح عجوزاً و عمره عشر ليالي ٠

٣

في اليوم الذي تلى ذلك المساء ، وقبل غناء الحجل دونفورو بقليل ، ولّت العاصفة المتعبة من كثرة هياجها كلّ ذلك الليل ، و قد حرفتها التيارات الهوائيّة المتوحشة والتي تبدد كلّ صباحٍ في مسيرها وضوح بزوغ الفَجر ٠

تابع المطر هطوله على قرى باتوالا ، و كان يُسمَع صوت حفيف أوراق الشجر بفعل هطول المطر عليها ٠ و كانت تُسمَع أصواتٌ مختلفةٌ و مرتبكةٌ على طول الأعشاب التي دمرتها زخّات المطر التي هطلت طيلة الليل ، كان صوت المطر يملأ الدغل بالهمسات و التمتمات ، وقبل بزوغ الفجر بقليل ، لم تكن ياسنغندجا قد نامت بعد ، كانت منشغلةً طيلة الليلة المنصرمة ٠

كانت تشعر بالرّاحة و هي بمفردها في كوخها الخاص المبني من الآجر[1] و هو دائري و منخفض كما أنّ سقفه مائلٌ و مغطّىً بالقصب حتى أسفله .

إنه من عادات قبائل الباندا و بعض القبائل التابعة لها ، إنّ كلّ إمرأةٍ متزوجةٍ يُخصص لها كوخٌ خاص بالإضافة لبيتها الزوجي ، و كان زوجها باتوالا قد أسرع ببناء بيتٍ لها ، و ذلك في الأيام التي تلت زواجهما .

و منذ ذلك الوقت ، و في كلّ مرّةٍ لا يكون لها موعدٌ مع سيّدها أو يكون لها سبب آخر ، كانت تأوي إليه لتتمتع بالوحدة .

باتوالا ، يا له من زوجٍ جيد ! فما من أحدٍ جدير بالاحترام و الامتنان أكثر منه ، لم يكن أمامها إلا أن تمدح طيبته ، فهو لا يغيّر مزاجه و لا ينطق بكلمةٍ نابيةٍ ، إلا عندما يتعرض للبيض ، كانا متزوجين مع ذلك منذ أكثر من عدة فصولٍ جافة .

إنّ وجود ثماني زوجات في بيت واحد قد جعل الأعمال المنزلية تزداد و مع ذلك لم يقلّ أبداً الشعور بالعطف بينهنّ .

من جهةٍ أخرى ، لم تكن ترى أنّ قدوم الزوجات اللاتي اختارهنّ باتوالا يعكّر التفاهم أو يوحي بالشكّ بينهنّ جميعاً ، ألم تكن قد أعطته وريثاً – و كان قد مات فيما بعد – في الأوقاتِ العادية ؟ لقد استغلّ بشكلٍ طبيعي حملها و أمومتها ليتخذ زوجةً ثانية .

---

[1] مادة تستخدم في البناء و هي خليط من التراب و القش و الحصى .

والأسباب ذاتها أدّت للنتائج ذاتها بعد عشرة شهورٍ قمريةٍ فيما بعد ، الأمر الذي تكرر بالنسبة للزوجة الثالثة ، و استمرّ حتى الزوجة التاسعة ٠

وماذا بعد ذلك ؟ من هو الملام هنا ؟ لقد تصرف باتوالا هكذا ، ولم يتجاوز حقوقه ولم يفعل شيئاً إلا و يتوافق مع أعراف قبيلة الباندا ٠ إنّ فترة الأمومة تعني الحمل والولادة و الاقتبال والإرضاع و رعاية الطفولة المبكرة ، كل ذلك يُحدِث تعباً و إرهاقاً ٠

إنّ التقليديين بالاعتماد على الحكمة التي ورثوها من أجدادهم و من علومهم وعوا هذا التعب المضني لكلّ الأمهات ، لذلك أعفوهنّ من أيّ واجبٍ زوجي خلال أربعٍ وعشرين شهراً قمرياً أوستةٍ وثلاثين شهراً بشكلٍ مستمر ٠

ما الذي سيحصل مع الزوج بهذه الحالة ؟ و كيف سيتصرف مع حاجاته الطبيعية ، و كيف سيفصلها عن التابو[١] الذي يُثْقِل كاهل الأمّ الشابة في اليوم التالي لولادتها ؟

بكلّ بساطةٍ يمكنه أن يضيف إلى زوجته الأولى عدداً من الزوجات اللواتي تُشبِعن فيه هذه الحاجات٠ لم تكن ياسيغندجا تلوم باتوالا ، و لكنّ المصيبة أنه بدأ يكبر و لا يبدو متحمساً إلا للتدخين ، كان هذا فعلاً وقت فراغه الممتع ، و الذي يكمن بإغلاق عينيه إلى النصف و أخذ سحباتٍ طويلةٍ من غليونه ، و التمتع برائحة و تدخين التبغ ٠

فجأةً ارتجفت و تمطت ، و اجتاحتها رغبةٌ نشلتها من الفتور و القنوط ، فقد كانت تشعر على الرغم من عمرها و هي لا تزال شابةً ، بأنّ لديها حماس لم تستخدمه٠ فالنار المتأججة داخلها لا يخمدها فقط لطف زوجها معها كلّ يوم ، و ما هو المدهش إذا

---

[١] المحظور بسبب طبيعة دينية ٠

أصبحت فضيلتها متقلبةً يوماً بعد يوم ؟ إنّ تقصير باتوالا أصبح معيباً ، لماذا لم يحاول أن يكون بمستوى بيسيبنغي ؟ هذا الرجل الجسور ، كما يقولون عنه ، كان يفعل كلّ ما يجب على الرجل فعله، وكلّ النساء كانت مغرمة به – و هي كذلك مثلهنّ أيضاً .
استمرّ صوت المطر المنهمر على الآجرّ ، و كانت ياسبغيندجا تستمع بشرودٍ لأغنتيها المبهمة ، كانت أحلام اليقظة جميلةً عندما يهطل المطر على الدغل .
و لكن كيف أمضت أيام مراهقتها الجميلة ؟
أغلقت عينيها ثم رأت مركز البامبا برفقة والدتها ، حدث هذا عندما كانت خادمةً للقائد العسكريّ الأبيض و عندما ترك كريبيدجه للعودة إلى فرنسا .
يا لها من فتاةٍ فقيرةٍ و صغيرةٍ في ذلك الوقت !
تلك المسكينة التي كانت بالكاد بالغةً لم يكن قد مسّها من قبل أيّ رجل ، وعلى الرغم من أنّ الضابط الفرنسيّ قد راودها عن نفسها عدّة مراتٍ قبل أن يغادر .
لم تكن هذه الأمور عاديّةً حتى تُخلَق هذه القصص ، و هذه السمعة هي التي دفعت باتوالا لطلب الزواج منها على الفور.
كان لا يزال شاباً ، جرت الأمور حسب الأصول و بمصلحة كل منهما ، و لم تؤثر الأقاويل على ذلك في شيءٍ بسبب مقام إحدى عمّات أو خالات باتوالا.
لقد دفع مهرها المطلوب في المهلة المحددة له ، و كان عبارةً عن عشرة من الجداء و ثلاثين دجاجةً صفراء أو بيضاء ، واللونان الأبيض و الأصفر لا يمكن لأحدٍ تجاهلهما - لأنّهما يرمزان للمشاعر الطيبة – و عشرين معولاً جديداً[1] ، كلّ هذا المهر كان جاهزاً للقبض من قبيلة مانجديا إضافة إلى اثنتي

[1] هو أداة ذات شفرة طويلة تستخدم في الزراعة .

عشرة سلّةٍ من الذرة الحمراء و الكثير من الذرة البيضاء ، و خمسة رماحٍ صغيرةٍ لصيد الفيل و سكينٍ تقليدي للرمي٠ في الواقع أخذ كلّ هذا المهر ليعطيه لوالد زوجته و ليقول له التالي : أنا أعطيك كلّ هذه الخيرات مقابلٍ أن تعطيني ابنتك .. و من الآن فصاعداً ، أصبحت أسرتك غاليةً عليّ مثل أسرتي ، و كذلك أنا أتكفّل بها و أشهد بهذه المجرفات التي قدمتها لك هديّةً ، و إن لزم الأمر ، بأن أهتم بمزروعاتك أيضاً٠
وأقسم بحديد سّكين الرمي هذا أن تقتلني به فيما لو صدر مني مايخزي أو في حال تعرضتُ لك بسوء ٠
دخلت العروس إلى كوخ باتوالا الطيّب بعد ثلاثة أيامٍ من تسليمه سكين الرمي ، وذلك تبعاً للتقاليدِ العشائرية ، و بذلك أصبحت زوجته للأبد ٠ كانت حياته هانئةً و سعيدة ، كان باتوالا صياداً برياً سعيداً وغالباً ما يعود خالي الوفاض من الدغل ، و كانت تشعر بالسزور ليلة إثر أخرى ، ولاتهتم إلا براحة البال و عدم تعكير صفوه ٠
ومع ذلك كان بيسيبنغي هذا فتىً جميلاً ، و كان من الروعة تأمّله وهو يرقص كل مساءٍ رقصة الرغبة التي يقدّمها لنفسه وبشكلٍ أفضل٠ و ها هي الآن تتذكر موعدها الذي أعطاها اياه هذا الولد الخبيث في الليل و قبل أن يذهب إلى مكانه الذي كنّا نجهله !
كانت مندهشةً من جرأته ، ولم تجد كلاماً تجيبه به ، ولكن هذا الموعد ٠٠٠
كان ينبغي على بيسبينغي أن ينتظرها في المكان الموعود ، هل كانت ستذهب أوأنها لن تذهب للقائه ؟ و ما هو القرار الذي اتخذته ؟ كانت السماء لاتزال تمطر ، و بقيت تحلم بالقرب من نارٍ متّقدة ٠ ومن جهةٍ أخرى فإنّ للدغل آذاناً سريّة وهو مكتظٌ بالعيون المختفيّة ٠ فكل هؤلاء يُخشَى منهم و كأنّهم مرض

الجذام ، ومن الأفضل الإصابة بهذا المرض على النتائج المترتّبة على الخيانة الزوجية . أفاقت المرأة من أحلامها على حين غّرة ، فقد كان صوت طبلٍ يُقرَع في الأفق .
علمت بأنّ هذا الصوت قادمٌ من قرية ماتيفارا ، وعلمت أيضاً و بشكلٍ عفوي ماذا تعني هذه الرسائل الصوتية الصادرة .
فكرت للحظة بالضابط الأبيض المكلّف بحفظ النظام في كلّ المنطقة التي يرويها نهر البامبا.
هذا النهر الجميل كثير الطرائد و الأسماك .
كان الضابط مشهوراً بأنه سهل المعاشرة ، و كان مهووساً – [1] ككل الضباط – بوضع جسورٍ متينةٍ تقريباً على كل الخلجان البسيطة في المنطقة ، و فتح الطرقات و الممرات الجبلية الضيقة و الدروب في كل مكان أو حتى في الدغل الذي يحدث فيه اختناق في فصل الأمطار.
انفجرت فجأةً بضحكةٍ مليئةٍ بسخريةٍ وقحة ، كان ينبغي على المرء أن يكون أبيض كي يتمكن من اكتساب أفكارٍ غريبة ، لنرَ إن كان من الضروري وضع جسورٍ على أنهارٍ نستطيع عبورها عبر مخاضة[2] بدون تلك الجسور ؟ عندما تحاول أن تفهم أساليب البيض ، فأنت حقاً تُضّيع وقتك ...
خطرت على بالها فكرةٌ جعلتها تضحك من جديد ، ألا وهي أنه يقال بشكلٍ شائع إنّ عضو الذكورة عند البيض هو أقل حجماً منه عند السود ، و بالمقابل ، وإضافةً إلى ذلك ، فهم منشغلون في فن معرفة استغلال الأداة الوحيدة التي تُسرّ النساء و تدخلهنّ في سحره .

---

[1] له نزوة أو عادة .
[2] مكان قليل المياه يمكن عبوره سيراً على الأقدام أو فوق ظهر حيوان . المترجمة

كانت تريد أن تتذوق عناقهم حتى تقارنـها مع عناق باتوالا ، و ماذا يختلف هذا عن ذاك ؟ إنْ كانوا من البيض أو من السود ، فليس للرجال عندما يريدون أن يضاجعوا النساء طريقتان . ومع ذلك ، منهم من يدّعي بأنّ بعض البيض يسلكون مع النساء سلوك كلبين ذكرين يمتطيان ظهري بعضهما البعض .. و هو ذوقٌ متشابهٌ و نتن ، و يبدو أنّه مشوّهٌ ولكن لا يبدو على أنه افتراء ، و قد يبدو الأمر يتعلق بها خصوصاً كونها تملك إيضاحاتٍ حول هذه النقطة .

لو كان القائد العسكري في البامبا قد راودها عند نفسها ، فهل كانت سترفضه ؟

كانت تمرر نظراتها في كوخه وكأنّها تبحث عن أحدٍ ما أوعن شيءٍ ما ، يا له من صمت ! لقد توقّف المطر ، ثم نفخت بقوّةٍ على الجمرات المغلّفة بالرماد الذي استُهلِك في داخل الكوخ .

وكانت الشعلات المرتفعة قد توغلت في الضباب و جعلته مكتظّاً بالأبخرة السوداء[1] . كان الضباب يؤكد عبر كثافته أن النهار قد بدأ ، و بعد قليلٍ من الوقت سيأتي لولو ، إله الشمس ليطرد كلّ الأبخرة ، و يُغرِق الفضاء اللازورديّ الرحب بفيضٍ من أشعّة الشمس .

ثم فكّرت بزوجها باتوالا لبرهةٍ ... كان يتوجب أن يأخذ طريق الأدغال قبل صياح الديك و ألاّ يعود إلى القرية إلا عند منتصف النهار ، لقد كان لديها من الوقت ما يجعلها تذهب إلى موعد عشيقها ضمنياً ، و عندما تذهب إلى هناك ، فهي لا تخشى شيئاً .. وماذا يريد منها زير النساء هذا ؟ هذا ما كانت تريد معرفته ، و ليس أكثر من ذلك .

[1] لونه يشبه السخام و هو لون الدخان .

وعلى كلّ حال ، فقد قررت ألاّ تمنحه مزية خاصة مهما كانت ، فلم تكن من أولئك النسوة اللاتي يقعن في شراك الفتيان الوسيمين و المعجبين بأنفسهم ٠
حركات الصبية لم تعد تناسب عمرها ، فعلى المرأة المتزوجة واجباتٌ يجب ألا تتنصل منها، و يُعتَبر تحضير وجبة طعام لباتوالا من هذه المهام .. كان بإمكانها أن تَعهد لقريناتها بهذه المهمّة ، و لكنها لا تريد أن تثير شكوكهنّ من خلال غيابٍ غير متوقعٍ و طويل ٠
تمطّت و تثاءبت ، كانت تشعر بأنّها مرتاحةٌ بهذا الفعل كاكتفاءٍ حيوانيّ لدرجة اللذة ، و كانت تتلذذ بطقطقة مفاصلها ٠ ثم زحفت نحو بابٍ كوخها خلسة٠ كان يتكون من جذوع الصنوبر المدوّرة مكدسةً فوق بعضها البعض و مرتكزة على وتدٍ مشقوق ، فتحته ، ثم تسللت إليه بعيداً عن أنظار الآخرين ٠ تلا الضباب هطول المطر ، و لم يكن الدّغل إلاّ عبارةً عن الأبخرة ، كانت السماء تتبدد و تنحل كالقطع الممزقة ، و كانت الأبخرة تنبجس من باطن الأرض دون توقفٍ . كانت تراها تتكون و تتكاثف حول قرى باتوالا بحيث أصبحت الأكواخ غير مرئية ، بدأت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها ، ماذا عساها تفعل هنا ، و هي ثابتة في مكانها ؟
كان هذا اليوم كيوم آخر و على صورة ما سبقه من الأيام و جاهزاً ليوزّع على الأحياء حصته من الأحزان والأفراح ، و من الأحداث و المصائب ٠
فالقدر محتومٌ و بشكلٍ مسبق ، و قدرها هو من قادها في هذه اللحظة إلى عشيقها ، ولا تستطيع فعل شيء إلاّ أن ترضخ له٠
عادت إلى منزلها المسقوف بالآجرّ و في عتبته كانت تراقبها نباتات الصّبار التقليدية ، ثم خرجت مزوّدة بسلّة مصنوعةٍ من

الصفصاف و رتّبت فيها ثلاث ثمرات من الكرنب و مجرفتين و قدرين من الطين و قليلاً من المنيهوت ٠
جثت على كعبيها ، و قد وضعت على رأسها سلتها بما فيها لكي تتوازن ، ووضعت على يدها اليسرى واحدةً من جمرات الكوخ ، ثم عادت و استقامت بخفةٍ ، و بخطوة واثقةٍ و متواركةٍ سلكت الممرّ الضيّق الذي يسلكه نهر البومبو في طريقه إلى منبعه ٠
لتكن قيمة التقاليد ما تشاء ... فبعضها مقيتٌ للغاية ، و بعضها الآخر بالعكس تماماً٠ فمثلاً ، النظافة الشخصية : فالبيض لا يبالون بها ، و قد يمقتونها٠ و على كل الأحوال ، إن أدنى وضوء[1] يرعبهم ، فهم قلّما يقومون بذلك ، ولذلك ومن بدون أدنى شكٍّ تكون رائحة جثثهم نتنة٠ ومع ذلك فإنّ الماء يزيل الأوساخ و يرخّي الجسم ، و يقوّي الأعصاب و ينظف الجسم وينشّطه ، فالحيوانات لا يفوتها الاستفادة من فضائله ، فلماذا هم يستغنون عن فوائده ؟
و كامرأةٍ من أصول الباندا ، كانت ياسيغندجا تحبّ الاغتسال يومياً ، وبالأحرى ثلاث مرات في اليوم٠ وعندما بلغت نهر البامبو ، كانت تناجي نفسها ، وهذه هي عادةٌ خاصّة بالكثيرين من عرقها و هي كذلك باعتقادها أنها لا تمشي بمفردها ٠
كان نهر البامبو يجري مصدراً صوتاً ناعماً و عذباً بفعل ما جلبته ليلاً له مياه المطر و روافده ، هذه المياه التي كانت تهمس ليلاً و نهاراً في آذان ضفافه التي كانت تصغي له و هي تنهل من هذه المياه ، كانت تلهو قديماً مع صديقاتها بالبحث عن السلطعون والجمبري في طبقات التربة و تحت صخور سريرها ، لكن كان هذا منذ زمنٍ بعيد ٠٠٠

---

[1] غسل الجسد ٠

جسّت مياه النهر بقدميها ، كانت مياهه متجمدةً ثم عادت بعد للغطس بعد ذلك أن وضعت سلّتها على الأرض ، و بحيث لا يمكن لأحدٍ أن يراها من جهة النهر وهو قادم .
هنّأت نفسها على مكرها .. كانت تشير إلى وجودها و تبرئتها .. ومن يرَ السلّة يدرك أنّ صاحبتها ليست ببعيدةٍ عنها ، فعندما يقوم الإنسان بأعمالٍ سيئة ، عندها يجب أن يحترس ، أما عندما لا يقوم بذلك ، فهو لا يُلام على شيءٍ .
عندما انتهت من هذه الأفكار ، اجتازت نهر البامبو بخطوةٍ ثابتة وتغلغلت في الضباب الذي بدأ يتلاشى ، و لم يكن معها سلاحٌ إلاّ جمرتها .
مرّت في البداية بمحاذاة نبات المنيهوت ، ثم غارت بين نباتات الذرة الصفراء ، حيث سببت هروب مجموعة من الخنازير من ذوات القرنين و الخطوم المغطاة بالثآليل.
سارعت الخطى ... كان الضباب يتلاشى باستمرار ... وكان الرمل الرطب القرمزي يصرُّ تحت أقدام ياسنغندجا ، و كانت الحشائش قد انثنت وقُطعَت بفعل المطر. تابع الضباب تلاشيه و اختفاءه في الفضاء ، كان قلبها يخفق من الحبور المرتبك ، اقتربت من مكان موعدها و شعرت مرّةً بفرحة الحياة و مرّةً بالاستياء من نفسها .
ارتعدت فرائصها بسبب ضجةٍ ما ، ثم توقفت ... لقد اعتقدت بأنها سمعت أصواتاً .. ربما يجب أن تعود أدراجها ؟ لكن ألم تكن تحلم ؟ لكن في الواقع لا يمكن سماع صوتٍ فيما لوأصغينا إلا لنواح الريح عندما تحرّك حشائش الدغل ، أو عندما تبوح بأسرارها للأشجار التي تمدّ لها أغصانها .
ومع ذلك – فقد استنشقت الهواء بملء رئتيها - لا بد أن يوجد أحدٌ ما في هذه الأنحاء. و لكن ليس عبثاً أن نشمّ رائحة جسمٍ

خاصةً برائحة جسمٍ أسود تختلف عن رائحة النباتات المبللة و رائحة التراب الممزوجة بالمياه و التي لا يمكن وصفها ٠
أخذت تمشي من جديد ، ثم سمعت نبرة الصوت نفسه من جديد ... ما من شكٍّ محتمل هذه المرة ، هنا كان بيسيبنغي بحالةٍ جيدة ، كانت هناك امرأة أخرى معه ٠
سحقاً ! كيف يجرؤ بيسبينغي على فعل هذا معها ؟ و من تكون هذه العاهرة ؟
حقاً إنها لم تستجب لطلبه بالأمس ! الأحمق ! فهو لم يكن يعرف أن يفسّر بوضوح صمت النساء ! و لكن لا يهم ... لم يكن يتوجب عليه أن يتصرف على هذا النحو .. نعم !
لقد حاول هذا الصياد السيئ أن يصيد أرنبين دفعةً واحدة ، أجل !
كان بيسيبنغي عبارةً عن قطعةٍ لا تكفي شهوتها و قسماً بالإله نغاروكا ، ستنتقم منه جراء إهانته لها ! لكن يجب عليها أولاً أن تعرف من هي غريمتها ، وبعد ذلك ستتخذ القرار المناسب ٠
تسللت بين الحشائش كصيادٍ يتربص لطريدته ، مجازفاً بذلك خارج مكان مراقبته ٠
لم تكن تتقدم إلا ببطءٍ ، وتتوقف أحياناً حتى تُهدِّئ من ضربات قلبها الذي كان يخفق بشدةٍ ، أو حتى لتحاول أن تسمع ولو مقتطفات من حديث عشيقها مع تلك المرأة التي يتكلم معها ٠
اعتقدت لمرتين أو ثلاث بأنها قد تستطيع أن تعرف اسمها .. أو قد تكون مخطئةً للغاية ، أو قد تكون الشمطاء أندوفورا ! إن كانت فعلاً هي ، فإنها سترّد لك الصاع صاعين ، فلم تكن تفهم لماذا فضّل عشيقها هذه الحثالة عليها ، فبماذا يفضّل اندفورا هذه عليها ؟ فقد كانت عجوزاً ومجعّدةً و ثرماء و تنعبث منها

نتانة زبدة الكريتة[1] ، ولا تعرف أن تعطي أهمّ شيءٍ يطلبه الرجل من المرأة .

هل هذا النوع من النساء يروق لبيسبنغي !... توقفت مجدداً ، ثم استقامت وقد زهت بنفسها و بجذعها الطريّ و الحيويّ ، ثم أُعجبت بساقيها المفتولتين و المنتصبتين على كعبين حساسين و قدمين طريتين ، وبوركيها المتناسقين و ببطنها المشدود وذراعيها اللذين خُلِقا لمعانقة الحبيب ، ثم سارعت خطواتها و هي فخورةٌ بجمالها ، ومسرورةٌ كونها تعرف أنها جميلة .. كانت العصافير تنطلق مسرعةً في الجوّ و من كل الجهات ، و كانت الشمس تسطع على كل الأماكن ، ثم مرّت من مكان تنبعث منه أحياناً روائح كريهةٌ و نتنة من الخشب على شكل نفخات متصاعدة في الهواء . و كانت على وشك الوصول إلى شجرة ذات أغصان منخفضة ، عندما شعرت بخطرٍ ما .

كانت تشعر بأنها تحت المراقبة ولن تختفيَ عن عين من يراقبها و كأنّها فريسة ، و يراد منها جلدها و دمها و حياتها. عندئذ رفعت عينيها و صرخت مذعورة !!! ثمّ انقضّ عليها النمر مورو و اعتلى ظهرها من حيث كان يكمن لها .

لقد هجم عليها هذا الضاري المنقط هجوماً مباغتاً.

كان بيسيبنغي قد نجح في إبعاده عنها بحكمةٍ ، عندما قفز عليه من جانبه في الوقت المناسب. لم يكن ما حدث قد راق لمورو النمر ، فعبّر عن غضبه من خلال مجموعةٍ من الزمجرات القوية و الحادة . و القاعدة تقول : فريسةٌ فائتةٌ هي دائماً و تقريباً فريسةٌ خاسرة ، و تنطبق هذه القاعدة على كل الحيوانات الموجودة في الدغل ، و كذلك الحال بالنسبة لأنواعٍ من القردة

---

[1] زبدة الكريتة (جنس من الشجر ينمو في أفريقيا و له حبوب تستخرج منها مادة دهنية) المترجمة

ذات الجلد الأسود و التي تقبع في أوكارٍ مصنوعةٍ من التراب الصلب و من أغصانٍ متشابكةٍ من القصب ٠
ولكن ، و لسوء الحظ ، لن يستطيع النمر البقاء هنا ، فهو يتضوّر جوعاً٠ وماذا يفعل ليقاوم ذلك ؟ و زيادة على ذلك ، فقد جاءت الصدفة أن ينقضّ على إنسانٍ ما إن اعتلى ظهره حتى صرخ بأعلى صوته ، بل و إنّه من المشهور عند عموم النمور ، بأن هذا النوع من الإنسان ذي الوجهة الخاصة لا يقاوم ، و لا يحتاج الأمر إلا لبضع ضرباتٍ من مخالبهم لكي يفهم ما اعتاد النمور على تسميته لغة العقل ٠
استجمع مورو قواه ليقفز على ياسيغندجا ، في الوقت الذي أصبح فيه الممر سالكاً في الدغل لبيسبنغي و باتوالا ، و كلاهما مسلّحين برماح الصيد و سكاكين الرمي ٠
عندما رأى النمر ذلك ولّى الأدبار ٠ و بعد ذلك أشرقت الشمس قليلاً ، لقد زال الخطر على ما يبدو في الوقت الراهن ، لكن فات الآوان و لم يعد بإمكان النمر اللحاق بطريدته ٠
إن الذهاب إلى القرية هو أهم شيء ينبغي فعله ، وبالفعل مشوا خلف بعضهم و بالتتالي ٠
كان بيسبينغي يمشي في المقدمة ، وجاءت خلفه ياسيغندجا ... أما باتوالا ، فقد كان الأخير، و كان يفكر في أمرٍ ، و هو يراقب زوجته المفضّلة بانتباه ، و يهزّ رأسه و يلقي الكثير من نظرات الشكّ على بيسبينغي زير النساء هذا و الذي أقسم على مراقبته عن كثبٍ من الآن فصاعداً٠ ذاك الذي باغته في أحد الأيام و هو يراقب طريدةً أخرى غير طريدة رجل محبٍّ للصيد ٠

٤

قبل ثلاثة أيام من الاحتفال بالغانزاس ، هبّت عاصفةٌ مرعبةٌ أنهت فصل الأمطار بالكثير من الخسائر و الدمار .

لم تكن تباشيرهذا الاحتفال قد أُعلِنت بعد . أشرقت الشمس على غريماري ، وكان النهار كسوابقه ، متبلبلاً في البداية ، ثم مشرقاً و حارّاً .

كانت الرياح لا رطبةً ولا حارة ، وكانت تهزّ الأوراق الكثيفة ، بينما كانت أسراب الطيور العاشقة تفيْء بظلّها و تسجع ، و كانت هذه الطيور تختلف عن بعضها بثخانة جسمها ، أو بلون ريشها الأخضر . كانت العقبان تزداد شيئاً فشيئاً ، وهي تحلّق بلا كللٍ فوق حقول الذرة البيضاء و فوق الأشجار و الجبال .

كان أحدهم على استقامةٍ واحدةٍ ينقضّ على الفريسة التي يلحظها ، ثمّ يصفّق بجناحيه بقوّةٍ و كأنّه يجذف في السماء ، و بعد ذلك يطير في أعالي السماء مبتعداً مبتعداً ...

لقد كان الجو معتدلاً .

وعلى طول نهري البامبا و البومبو[1] كانت القردة تتسلى ، فهنا كانت تقفز و كانها تبكي ، لأن أصواتها تشبه بكاء طفل ، و هناك

[1] نهران .

كانٍ بعضها و الذي يشبه جلده الوزرة السوداء و البيضاء يقطّب وجهه. نرى كذلك سرباً من النحل يطارده طائر العسل[1] فيطير مذعوراً ، و خلال لحظةٍ طويلةٍ ، لا نسمع إلا طنين النحل .

رغم أن النحلات قد طارت وابتعدت منذ زمنٍ طويل ، إلاّ أننا لا زلنا نعتقد بوجودها ، عندما يداعب النسيم أوراق الشجر موحيا ّبصوت طنينها .

كان الطقس معتدلاً ، و كانت الحمائم تهدل ، و كانت تُسمَع أغنياتٌ رتيبةٌ قادمةٌ من الممرات الجبلية الضّيقة و الوديان الصغيرة التي تحوي قرىً صغيرة ، و أيضاً يُسمَع صوت مدقة الهاون وهي تسحق أوراق المنيهوت اليابسة ، بينما كانت النسور تحوم و العقبان في السماء بأعدادٍ أكثر من المعتاد .

كان ماكوديه وباتوالا أخوين من الأب والأم نفسيهما، و ليسا فقط من الأب نفسه كما هو شائعٌ ؛ إذ إنّه يحقّ لكلّ رجلٍ أن يشتري ما طاب له من النساء ، و ينجب منهنّ أطفالاً. وباعتباره كان موجوداً في ذات المكان ، فقد كان بيسبنغي مدعوّاً أيضاً.

انطلق الثلاثة ، الواحد تلو الآخر كالبطّ ، لا يصح أن يمشي الثلاثة في المقدمة ، و هي عادةٌ قديمةٌ قِدَم الأصل الزنجي تقضي بأن يكون هناك تتابعاً.

أنزل الكلب دجوما أذنه و تبعهم .....

تذمرت أندوفورا ، مرّةً بصوتٍ خافت و مرّة بقوة ، و هي إحدى زوجات باتوالا و قالت : هناك من هي مزهوّةٌ بنفسها .ولم تزل في حالةٍ من الغضب عند رؤية بيسبنغي و هو يهملها بشكل جلي – و هي الغيورة و الشهوانية - من أجل ياسيغندجا . ثمّ و

[1] طائر يأكل العسل .(المترجمة)

بصوتٍ عالٍ ، تابعت قولها : نعم ! هناك من هي مزهوّةٌ بنفسها .

ما من أحدٍ نطق بكلمةٍ ، ثم أضافت بلهجة وقار : بالتأكيد ، فهناك من لا يسمع ما لا يريد سماعه ، و هذا لا يمنع أن يكون في جوهره أكثر سهولة مما يبدو عليه ، أليس كذلك يا ياسيغندجا ؟

ثم أطلقت ضحكاتٍ شريرةً في المكان . لم تكن تحب ياسيغندجا ، وعندما كانت تتودد لها ، كانت تفعل ذلك لدرجةٍ تتعبها بها .

أجابت ياسيغندجا : أعتقد أنّك على صوابٍ يا أندوفورا ، ومع ذلك فأنا أجهل تماماً من تقصدين بتلميحك هذا !! أنتِ وبلا شكٍ تتحدثين عن تلك العاهرة ، زوجة سيد القبيلة الشجاع ، أليس كذلك ؟ أقسم أنّها مخطئة بزهوّها بنفسها ، إلى أيّة غرائز حيوانية مخجلة سلّمت نفسها ؟ أنا ومع ذلك أعذرها ، فلقد كانت امرأة رجلٍ أبيض ، و هذا ما يفسر لها كل شي.

مَنْ تلك المرأة الشريرة[1] التي تشتمني ! من تلك العاهرة التي تشتمني ! يالنتانة البطن الذي حملك ! أنت نتانة كل النتانات ! و الدليل على ذلك ، أنّ كلّ الأطفال الذين أنجبتهم حتى هذا اليوم ولِدوا قبل أن يكتمل نموّهم و ماتوا أو لم يبقوا على قيد الحياة طويلاً .. لا تنطقي و لا حتى كلمةٍ واحدة ! اخرسي ، أو سأضع في حلقك . . .

- صديقتي العجوز ، لماذا كلّ هذا الصراخ ؟ فأنا لست طرشاء هل تكلمتُ عنكِ بسوءٍ يوماً ما ؟ نعم ، نعم . . .

[1] في النص وردت كلمة بمعنى اللحم الرديء وتعني الشتيمة هنا .

- هل تريدين أن أكسر مدقة الهاون هذه على خطمك الوسخ الذي يشبه خطم الخنزير؟ سأقول لباتوالا أنّك تخونينه مع بيسيبنغي ، سأقول له ٠٠٠

- حقاً ! حقاً ! أنا أعتذر منك يا أندوفورا ، أنا أعرفك منذ سنين طويلة ، و لم أتذكر أصلك و أنك كنت خادمةً لرجلٍ أبيض ٠

هل يجب علي أن أؤكد لكِ بأنّ كلامي لا يعنيكِ ، و كلّ الناس يعرفون فضيلتكِ ، و يجب على بيسبينغي الذي تكلّمت عنه ، أن يعرف أكثر من غيره بهذه الفضيلة و كيف تتعاملين من خلالها لصدّ الرجال عنك ٠٠٠

هنا ركضت العجوز و انقضت على ياسيغندجا و ضربتها و عضّتها و خدشتها ٠كانت تهددها من صميمها ، بينما كانت قريناتها متضامناتٍ معها ٠ثم ذهبت و اشتكت للضابط و قالت بأن ياسيغندجا تتناول ما يمنعها من الحمل ٠

لقد طلبت أن يحكم عليها كبار السن بشرب السم ٠

و لكن لِمَ كلّ هذا الغضب ؟ بيسبينغي ! سخِرَت منها لأنّها تعلم أن من تكون مصابة بمرضٍ جنسيٍ لا يمكن لرجل أن يعاشرها ثم قالت :

– عندما لا نستطيع تناول ما نرغب أكله ، عندئذٍ نؤكّد بأننا لسنا جائعين ٠

أما بالنسبة للضحية بيسبينغي ، فإذا كان حقّاً مصاباً ، فأنا أرثي لحالك يا عزيزتي المسكينة أندوفورا !

عند سماع هذه الكلمات الأخيرة ، ساندت النساء اللاتي كنّ يضحكن و للمرة الأولى ياسيغندجا ٠

– لقد هاجمت بقوةٍ أكثر من ٠٠٠

– هذا ما تقودنا إليه الغيرة يا أندوفورا ، عندما أخذتِ مني بيسيبينغي ، ألم أشعر بالغيرة منكِ؟

– هل تريدينه لنفسكِ فقط ؟ يا لها من شهوة !

– ياسيغندجا هذه غريبةٌ !

– و أنتِ جوابك حاضرٌ !

– هيا بنا ، هيا بنا ، قالت ياسيغندجا .. لقد مزحنا كثيراً اليوم ...هيا لنأكل من هذا المنيهوت ، أليست رائحته زكية ؟

انظرنَ ، فهنالك السرير و المؤن و حلوى المنيهوت و الرجل و الرقص و التبغ ، ما من حقيقةٍ أكثر من هذه .

فجّرت هذه المزحة الكثير من الضحك اللامتناهي .

هبّت الريح فجاةً وأصبح التنفس صعباً ٠ و شيئاً فشيئاً ، أصبحت السماء ، التي كانت بلون تربة اللاتريت حمراء اللون ، رماديةً ، و أخذ الذباب بالطنين من كلّ الجهات ، و بدأت الطيور تسكت الواحد تلو الآخر أما العقبان فأخذت بالاختفاء الواحد تلو الآخر أيضاً .

برزت غيومٌ كبيرةٌ مائلةٌ للبياض من خلف الجبال٠ كانت تتكدّس و تتجمع و تتكاثف و تذهب بشكلٍ لاإراديٍّ باتجاه التيارات الهوائية .

و سرعان ما تأتي قوةٌ خفيةٌ تدفع بتلك الغيوم على نهر البامبا ، ثم يصبح لونها أكثر سواداً من الفحم و تتراكم الواحدة فوق الآخرى و تنضغط و تتصادم و تتراكب و تجري على طريقة الثيران البريّة الهاربة من نار الأدغال ٠

كانت هناك خطوطٌ تحزز تكتلها ، و كان الصدى يحمل صوت انفجارٍ وزمجرةِ رعدٍ .

أُدخِلت الطناجر و الحصيرات بسرعة إلى الداخل ٠ كان الدخان المتصاعد يمر عبر السقوف و هو ثابت و لونه أزرق و يحيط بالأكواخ ٠

ما من شيءٍ يتحرك في اللحظة الراهنة .. كانت الغيوم تملأ السماء و هي ثابتةٌ و يخّيم على أنهار البامبا و الديلا و الديكا ، كما و تهيمن على قرى ياكيدجي و سومانا و يابنغي و باتوالا ، و كذلك باندابو و تاманديه و تابادا غراتاباغبا و أولاديه و

بومياسي و بانغكورا و ماتيفارا ، كانت تخيم على كلّ هذه المناطق الخضراء التي يخنق ظلها هذه الغيوم و تمحو الحياة اليومية و هي مليئةٌ بتهديدٍ وشيك الوقوع ، تنتظر إشارةً لن تأتي .

هناك ما بين سومانا و ياكيدجي ، كان ظلّ الغيوم يتحول إلى سحبٍ رماديةٍ تُدمِج الأرض بالسماء .و كذلك المطر ، مدفوعاً بنفس القوة التي سيطرت على الغيوم ، هطل على البامبا وانقض على غريماري .وما إن أصبح غزيراً حتى تشكل الضباب على الأراضي التي هطل عليها . و أخيراً هبّت رياحٌ حارةٌ و لا ندري من أين جاءت .

كانت أوراق أشجار الموز تحتكّ ببعضها البعض . وكان يردّ عليها نقيق الضفادع ، فتختلط الأصوات و تمتزج ، لقد كانت جوقة الضفادع تنادي المطر.
كانت الريح تصفر مسبوقة بعويل ، و كانت تهز العشب و تلوي الأغصان والعرائش و تمزّق الأوراق و تكنس الأرض و تحمل معها غبارها الأحمر و تمضي و تهرب و تضعف .

ثم بعد ذلك يخف أنينها و تضعف ، ثم تتبدد و تختفي لاندري إلى أين .

و من جديد يعود الصمت ؛ لقد صمت الصياح و الهمس بشكلٍ مقلق .

و ها هي الريح تعود من جديدٍ حاملةً معها رائحةًً زكيةً من الأراضي التي بللها المطر٠ ها هو الرعد يزمجر بشكلٍ متتالٍ و متقاربٍ ، و المطر يهطل من جديد ٠

كانت حبّات المطر ناعمةً و متباعدةً و خفيفةً ، و كانت تُصدِر أصوات قرقعةٍ على الدغل اليابس و على الصخور٠ كان النسيم رطباً ، و كانت الرياح تعصف بقوّةٍ ، إنّها العاصفة دونوفورو٠ كانت تثور بغضبٍ متزايد من لحظةٍ إلى أخرى٠

أمّا المطر المنهمر ، فقد كان دافئاً يتدفق كالسيل ، و غزيراً بدفعاتٍ ثقيلةٍ و سريعة ، لا تكلّ و لا تملّ و لا تقاوم و لا تتوقف ، كان يهطل على البامبا و على ديلا و على كل الجبال التي نراها ، و على كل الآفاق التي لم نعد نراها ٠

كان المطر و العاصفة دونفورو يثقلان على الدغل بغضبهما المشترك ، فقد كانا يقتطعان أوراق الشجر و يكسّران أغصانها و يقتلعان السقوف و يحملانها معهما ٠

ثم تنبجس سحابةٌ لا يمكن اختراقها من المساحات الساخنة منذ عهدٍ قليل ، فالماء يبحث عن الماء و يتجمع و يجري في الطرقات كالشلال و يتجمع في سواق و ينزل على المنحدرات قافزاً نحو النهر ٠

أمّا العاصفة ، فكانت تسرّع جريان هذه الشلالات و السواقي ، والمطر أغزر وأقوى و أقسى أكثر فأكثر٠ و لذلك فقد بعج السقوف و هدّمها و أحدث شرخاً في الأكواخ و أخمد مواقدها ،

بينما كان البرق بتعرجاته و ضوئه و فرقعة العاصفة المتقطعة و طقطقة الأشجار التي تسحب معها أشجاراً أخرى فتسقط معاً على الأرض ، لقد كان عويل العاصفة مدوّياً و مدهشاً في المكان لشدته ٠

استمرت العاصفة الهوجاء على هذا النحو طيلة النهار و الليل و اليوم الذي يليه ، و كذلك حتى أصبحت الشمس في كبد السماء ٠

تراجعت سرعة الرياح تدريجياً ، و بقي المطر فقط مستمراً في الهطول ، بشكل خفيفٍ و متباعد و ناعم و رطب ٠٠٠

لقد تحوّل الدّغل حالياً إلى مستنقعاتٍ حيث يُسمَع من وسطها نقيق الضفدع كومبا و العلجوم ليترو ٠

عندما يكون العشب مغموراً بالماء و كل ثنيات الأرض تتحول إلى جيوبٍ مائيّةٍ تبدأ الضفادع و العلاجيم بالنقيق ٠

أعطي النبرة أيتها الضفادع المزمجرة ، فأصواتك حادة و عميقة و موزونة ٠

أعطي النغمة فأخواتك الضفادع ستردد الغناء في كورال ٠

أصغي بالأحرى فهناك أصوات خفيّة قد ردت على ندائك ، فكل العلاجيم و الضفادع تغني٠ الكلّ يغني رغم الروائح القذرة المنبعثة من الدغل الغائص في المياه ، الكل سعيدٌ بهذه الرطوبة الواسعة التي تحيط به و التي صنعها للحظة ما أسياد العالم ٠

تغني و لا شيء يعكر صفو امبرطوريتها الصوتية ٠

كان الصدى في كل مكان يردد أصواتها و التي لكلّ منها طابع مختلف ٠

كانت الضفادع النقاقة و العلاجيم الصنجات و العلاجيم الجواميس و ضفادع الشجر تصدر أصواتاّ مختلفة مثل : كا – أك٠٠٠ تي – تيلو٠٠٠ كيه – إكس٠٠٠ كيه – إكس٠٠٠ كيدي – كيدي ٠٠٠ كيدي – كيدي ٠٠٠ دجا – أه ٠٠٠ دجا – أه٠٠٠

و أصواتٌ كثيرة ، واضحة أو خفية ، تسمع منها رنين الجلاجل و طرق مدقات الهاون و رنين الرماح و الإقياءات التي لا يمكن حبسها ، و كذلك أصوات نقيق كلّ أنواع العلاجيم و الضفادع ٠

و عند أُفول النهار ، كان الطبل يُقرَع مدوّياً ، سكت فجأةً ، ثم عاد من جديد ٠

توقف المطر ، و أصبحت الطرقات زلقة ، و الكثير من النمل ترك مستعمراته المهدمة حاملاّ معه جثث النمل الميت ، و لفترةٍ طويلةٍ كانت هناك رائحة عفونة بقيت حتى بعد مروره ، و بعد ذلك أسدل الليل أستاره ٠

خرج القمر ببطءٍ من مسكنه بين النجوم و جال في قرية النجوم الكبيرة ، و كان لونه أصفر و منيراً و مدوّراً تقريباً ، ثم غاب ، لم تكن حوله هالة تحيط به ، كانت النجوم تلتمع ، لم يعد هناك إلا النجوم ، آلاف النجوم و القمر ٠

و صدح عصفورٌ ليليٌ بصوته : أوبو ـ هو ، أ و ـ بو ، و كذلك الضفادع كانت تنق بشكل دائم .

كان يُسمع صوتُ صرير زيزٍ الحصاد والجدجد ، و من بعيدٍ كانت حشرات الحباحب تمزّق اللحن بلمعانها الأخضر المتقطع ،

و ما عدا كلّ هذه الأصوات ، كان الجميع نياماً .

لقد هبط الليل ، و أصبحت سرعة الريح بطيئة ، أما الجوّ فباردٌ .

٥

يا لها من سعادةٍ ! فالقمر يسافر في بلد النجوم ، والضابط ترك غريماري لمدّة ثمانية أيام .

فقد خطرت على باله تلك الفكرة الجميلة فجأةً ليذهب و يفتش في إقليم بامایاسي .

لقد تصرف بعمله هذا بحكمةٍ عندما يغيب التيس ، فإنّ العنزات تمرح .[١]

و كان باستطاعة احتفالات غانزاس أن تبدأ بعد ذهابه .

و من جهةٍ أخرى فقد بدأت الاحتفالات ، و تقدّم حشدٌ كبير في مركزٍ يضمُّ الكثير من الفِرق المشاركة ، و لم يبقَ إلا أن تبدأ رقصةُ المحاربين و غيرها من الرقصات .

في الواقع ، كان المكان العريض الفارغ يمتدّ من كوخ الضابط حتى الأشجار المكتسية بالعرائش المحاذية لمجرى نهر البامبا .

---

[١] هو شبيه بمثل شعبي في اللغة العربية العامية (غاب القط ، العب يافار)

و للحفاظ على ذلك كان هناك : مقرٌّ إداري و توابعه ، مقر الميليشيا[١] و السجن ، كلّ هذا للحماية، والجندي الوحيد الموجود اسمه بولا .
بفو[٢] ! من يستطيع في هذا العالم المتدني أن يهتم بأفعال وحركات هذا الدنيء كولونغولو ؟
كولونغولو هو اللقب الذي يشتهر به هذا الغبي المشؤوم ، و الذي بمشيته هذه يشبه حشرة أم أَربعٍ و أربعين .
لم تبدأ بعد مراسم الغانزاس بشكلِها المتألّق ، ولكن بعض الإشارات كانت تُنبئ بأنّها ستكون مميزةً .
عشرات الطبول كانت تُقرَع من هنا و هناك ، و لكن ليس كهذه الطّبول الصغيرة و البشعة التي اهترأت من كثرة الاستعمال و من التهام دود الخشب لها ، و من تأثيرات الجو عليها .
فكلّ واحدٍ منها عبارة عن جذع شجرةٍ برية قد جوِّف بصبرٍ .
لقد طُليت طبول الحفلة هذه بطلاءٍ أبيض مصنوع من الصلصالِ الأبيض و مسحوق المنيهوت الممزوج بالزيت ، كانت مخططةً بالأحمر من الوسط و من الأعلى للأسفل و بالطول و العرض .
كانت سلال الذرة البيضاء و حلويات المنيهوت و أطباقٌ مصنوعةٌ من الموز و صحون من الديدان البيضاء المقلية و الأسماك و الطماطم المرّة و الهليون[٣] تتكدّس على الأرض ، و بالقرب منها لحم الظباء أو الفيل و أرباعٌ من الخنزير و الثور البرّي المجففة في الشمس ، أو المشوية على الحطب . يضاف إلى ذلك المؤن و العسقول[٤] التي يستخفّ بها الناس البيضُ و

[١] قوات الشرطة .
[٢] تعبير عن الامتعاض و القرف .
[٣] نبات من الفصيلة الزنبقية يؤكل .
[٤] درن ، عسقل أو عسقول و هو جزء من ساق نباتية أو من جذر نباتي يكتنز بالمواد الغذائية .

منها : دازوس على سبيل المثال بمثابة البطاطا ، و البانغوس هي بطاطا ملساء ، مرّةً قِشرها أصفر و مرّة قشرها أحمر ، و الباباسوس يفضّلون تسميتها إنيام[1] ٠

توجد أيضاً جرارٌ كبيرةٌ و مستديرةٌ مليئةٌ إلى أعناقها بالشراب الذي نحصل عليه بتخمير الذرة الصفراء أو البيضاء٠ و أخيراً عدّة زجاجاتٍ من خمر البيرنو ، و التي نستطيع أن نحصل عليها من هؤلاء اللصوص[2] الذين يتاجرون بكلّ شيء ، و قد يبيعون أمهاتهم بشكلٍ طبيعي ، شريطة أن يُدفَع لهم فيهنّ أغلى الأثمان .

كان هناك دخانٌ كثيف يتصاعد من بيوتٍ متعددةٍ كان قد أُضرِمت فيها النار ، و كان لاذعاً أسود لأنّ الخشب كان مبللاً بالماء ٠

كان الناس يتوافدون من كلّ حدبٍ و صوب ويتسارعون نحو هذا الدخان المتصاعد من بعيد، منهم من هو قادم من كاما و بانغاكورا و بويامبا و ياكيدجي ، كالرجال و النساء و الأطفال و خدم و خادمات البيض و العبيد و الكلاب و الشيوخ و العجزة و المعاقين .

لقد تركوا قراهم في الدغل و بيوتهم الموحلة التي بنوها في أعالي الجبال ، و تركوا صيدهم البرّي و مزروعاتهم و صيدهم البحري وأعمالهم اليومّية ، وجاؤوا مسلحين بالرماح القصيرة و السهام ، يمسكون بأيديهم الجمر لكي ينيروا طريقهم عبر ممرات الغابة التي تحمي التخوم المباشرة للخلجان ٠

ماإن وصلت النساء حتى بدأن بالإسراع بالعمل و هنّ يدندنّ أغنيةً عن حشرةٍ تدعى جلاّلة[3] ، و يهرسنَ بمدقة الهاون - داخل الهاون الخشبي - الذرة البيضاء و المنيهوت أو الذرة

---

[1] إنيام و هو جنس نباتات معمرة درناتها نشوية تؤكل ٠
[2] تجار٠
[3] حشرة تعيش على زبل الحيوانات العاشبة ٠

الصفراء و يحولنَ كلّ ذلك إلى مسحوق ، و مطلع الأغنية يقول :

إنّ حشرة الجلاّلة معروفةٌ جدًا ، و هي لا تعيش إلا في الروث .
وغاية طموحها أن تتغذى من ذلك ،
الجلاّلة ، الجلاّلة
ياهيه ، الجلاّلة، أياهو !
و ثروتها الوحيدة هو مرض من أشد الأمراض إذهالاً .
و كزوجٍ طيّب يقوم الذكر بمنحه لأنثاه ،
و كأمٍ حنون تنقله إلى ابنتهما المحترمة لاهياً
الجلاّلة ، الجلاّلة
ياهيه ، الجلاّلة ، ياهو !

وسُمِعت ضحكاتٌ قويةٌ تشابه صوت قرقعة طيران الجراد ، وأصبح السرور شيئاً فشيئاً جماعياً ، فقد بدأ تأثير الخمر يظهر جلياً ، بحيث كانوا يتكلمون دون معرفة ماهية الحديث، وهم يرتشفون الكأس تلو الأخرى من بيرةٍ مصنوعةٍ من الذرة الصفراء و البيضاء .

كيف نتصرف و نحن نراها و هي تمرّ بفخرٍ بين مزروعاتنا
و هي تضع على رأسها تلك القبّعة التي يضعها الجندي على رأسه
هذه الحشرة ، هذه الحشرة
ياهيه ، هذه الحشرة ، ياهو ؟
يجب في كل الأحوال أن تعرفن يا صديقاتي
بأنه يجب أن تتقاسمن حصيرتها .
فليست امرأة من تنام مع هذه الحشرة الدنيئة
ياكيا !
و إنما مع العفونة
ياهيه ، حشرة ، ياهو !

عندئذ سُمع صوت ياسيغيندجا و هي تقول :
إنّ حشرة الجلاّلة هي صيادٌ للكثير من المحنّكين ٠
عندما ترى فيلاً ضخماً فهي تقتل شجرة ،
آآخ ! يا حشرة ، آخ ! يا حشرة ،
ياهيه ، الجلاّلة ، ياهو !
فهي لم تعد ماهرة عندما تقع في الحب ٠
و إنه من السهل حقاً أن نشرح بلاهتها ،
فالجلاّلة تذهب دائماً من جهة الروث ٠
هبّت زوبعةٌ مدهشة من هذا الغناء :
ياهيا ،
الجلاّلة ، الجلاّلة !
ياهيه ، الجلاّلة ، ياهو !
ثم تحيّي الكلام المرتجل المدهش التي نطقت به محظية باتوالا٠
اجتمع الحشد الرائع ، وكل القبائل كانت مجتمعةً ، بما فيهم العجائز ، و أخذ باتوالا بنشاطٍ كبيرٍ يتشدق بالكلام ، أمام مجموعةٍ من أقربائه من قبيلة الكابتاس أو أمام خدمٍ تحت سيطرته و العجائز المؤتمنين على تراث قبائل الباندا الموثّقة .
و بدأت تعلو نبرة صوته ... يقال إنّ عدداً من البيضِ قد ماتوا في بانغي ، يقال بأنّه منذ زمن قريب ، كان من المفترض أن يذهب الحاكم ميسيه إلى باندورو ، و يقال أيضاً بأنه في فرنسا و في أوروبا ، و خلف النهر الكبير[١] ، يتحارب الفرنسيون مع الألمان ، و هم يضربونهم كما تُضرَب الكلاب ٠
بينما هو يتحدث على هذا النحو ، يأخذ القِنّب و التبغ و يلفهما ثم يشعلهما و يبدأ بنفث عدة نفثاتٍ حسب عادته و بعدها يبدأ بالتدخين ٠

---

[١] نهر يقع في سويسرا

– هوو ! باتوالا ، هكذا اندفع فجأةً زعيم قبيلة ماندجا العظيم ، و الذي يُدعى بانغاكورا ، هوو ! باتوالا .

– سيز ! أوبو كاتيه... أوبو كاتيه ! هدوء ... هدوء ! صرخ الجميع من كل الجهات .

– اسمع بانغاكورا .

– بانغاكورا يريد الكلام .

رفع باتوالا يده طالباً الهدوء ، ثم التفت نحو ضيفه و قال :

– تستطيع الكلام الآن يا بانغاكورا ، كلنا آذانٌ صاغية .

– أنت تعرف يا باتوالا ، قال بانغاكورا هكذا لكي يبدأ بالكلام ، و أنتم يا من تصغون إليّ ، تعرفون أيضاً بأنني عائدٌ من كريبيبدجه ، فقد كنت هناك من أجل إيصال كلمةٍ للضابط العظيم كوتايا – سكان النهر يلقبونه هكذا بسبب كرشه الكبير – عن التصرفات السيئة و الفردية لدافيكيه ، هذا البرتغالي الذي يستبيح من وقتٍ لآخر قُرانا و ينصب عليها .

– لقد قصصت على مسامعه قضيتي ، و بطريقتي بالتأكيد .

هل تعلمون بماذا أجابني عن طريق مترجمه و الذي انفجر بالضحك من ذلك ؟

قد لا تحزرون أبداً ! من العبث أن تبحثوا عن الإجابة أكثر من ذلك ٠

لقد أعطاني إجابة تؤكد بأنّه أحياناً يوجد بيضٌ و بيض و هم يمقتون بعضهم البعض :

– كنت أعتقدك غبياً يا بانغاكورا ، و لكني مضطرٌ للقول بأنّك لاتزال غبياً أكثر مما كنت أتوقع ٠٠٠ أجل ! ماذا ٠٠٠ ألا تعلم إلى الآن بأن البرتغالي[1]لا يساوي شيئاً ؟ و إنه لشخص معتوه ! ٠٠٠ و هو ابن القرد ٠٠٠

ثم بدأ بالضحك ٠

– لكن ماذا تعلّمت خلال عيشتك الشنيعة ؟ ها ! إنّ هؤلاء الزنوج بُلهاء مع ذلك ٠٠٠٠ و بناءً على ذلك ضربني بكفّه على كتفي و هزني بقسوة ، في الوقت الذي كان مترجمه ينقل لي مزاحه ٠

– سأُعلِمك شيئاً يا بانغكورا ، لكن لا تُعلِّمه لأحد ، اسمعني جيداً ٠

[1] هنا نطق كلمة البرتغالي بطريقة مشوهة ٠

إنّ الربّ الخالق نغاكورا الذي خلقنا و غيرنا من البيض و في بداية الخلق ، كان قد أخذ أفضل شيءٍ في العالم و كوّننا منه و لذلك سيكون آخر أبيضٍ دائماً أفضل من أوّل زنجي ، و من المؤسف بالنسبة لنا ، بأن خالقنا قد خلق زنوجاً قذرين مثلك من نفايات البيض الأوائل ٠

و ليس ببعيدٍ جداً ، فقد جاءته فكرة خلق البرتغاليين٠ لقد بحث حوله عن مكوناتٍ ليشكلهم منها ، لكنه لم يجد إلا بُراز عرقك ، و بهذه الطريقة أصبح البرتغاليون الأوائل فاسدين ، و هكذا و لهذا السبب فإنّ البرتغاليين[1] هم أقلّ من أمثالكم قيمة ٠

و هنا هبّت عاصفةٌ من الضحك أثارت الحاضرين ٠

– ألا تجد ، يتساءل باتوالا محاولاً تهدئة الضحكات الأخيرة ، بأن تجارة المطاط الخاسرة هي حظ غير متوقع ؟

يجب أن نشكر الرب الخالق نغاكورا و أن نغدق عليه بالعطايا الاستعطافية لكي يمدّ لنا أجل هذه التجارة أكبر فترةٍ ممكنة ٠٠٠

من دونها لم نكن لنتمكن من أن نأتي إلى هنا لنُسعِد أفئدتنا ، و حتى لو كان الضابط في جولةٍ منذ عدّة أيام ، كان لدينا دائماً هؤلاء التجار اللصوص الذين يثقلون

[1] اللفظ هنا مشوه بقصد التصغير و تقليل الشأن ٠ المترجمة

كاهلنا بدفع (باتا) وهي تعادل خمسة أضعاف الفرنك ، مما يكلّف عند البيض (ميا) ،أي عشرة قروش ٠

قال ياكيدجي بتذمر : كلامك نقيّ كنقاء الماء العذب ، يجب علينا بالتأكيد أن نشكر الرب الخالق نغاكورا على هذه الأزمة السعيدة ٠٠٠

عندما حلت الأزمة ، عاد كلّ التجّار إلى كريبيدجيه و نانغي و أوروبا ، ليبقوا حيث هم و ليفنوا هناك ، فأفواههم مفتوحةٌ و أقدامهم معفنةٌ٠

- لكن ليس كلّ التجّار أشراراً !! صاح أحد الساخرين ٠

- هذا ليس كلّ شي ، هذا ليس كلّ شي ، هو ! يا باتوالا ، صاح آخرُ بقوةٍ٠٠٠

- على ما يبدو بدؤوا بترحيل كلّ الجنود السود المجندين في الجيش الفرنسي[1] باتجاه أوروبا ، و ذلك بسبب النزاعات الكبيرة التي تجري حالياً بين الفرنسيين البيض و الألمان البيض أيضاً٠

- نعم ! نعم ! ٠٠٠ يتم إرسال كلّ الرماة و القناصين السنغاليين إلى أوروبا ٠

[1] الجنود السود المجندون في الجيش الفرنسي ، و السوقة العسكرية الأولى هم من السنغال و رُحّلوا إلى مدينة سيت الفرنسية في أيلول عام ١٩١٤

– استطرد يابادا قائلاً : هل بمقدور ضباطنا اللحاق بهم بسرعةٍ قصوى ، و ربما لن يتأخروا بالذهاب هم أيضاً ٠

– ياباو ! تكلم والد باتوالا العجوز بصوت مرتعش ، أعتقد بالنسبة إلي و كما ترى حقيقة شعري الأبيض ، بأنك تأخذ الأمور بالكثير من السهولة ؛ كأنك تحسب الجبال أنهاراً و رغباتك كحقائق واقعية ٠

لنرَ ، أعطِ نفسك فرصةً للتفكير بكل بساطةٍ ٠ ٠ ٠

ستكون هناك ثلاثة فصولٍ مطريّة ، خلالها سوف يتنازع الفرنسيون والألمان بسلام ، و عن طريق طلقات البنادق ، أليس كذلك ؟ قل لي ، هل يرغب الفرنسيون بالرحيل ؟

لا ، على العكس ، فما من أحدٍ منهم مكث عندنا طويلاً ، فهناك عندهم خطر الموت ، فلماذا يذهبون للاقتتال ؟ إنّ الحفاظ على الحياة هو أوّل كلمةٍ حكيمة يا يابادا ٠ ٠ ٠

عاد الضحك من جديد ، و لكن يابادا تابع كلامه : أنت على حق دائماّ ياسيدي ، و أنا أول من يعترف بذلك ، ومع ذلك اسمح لي أن أتمنى لهؤلاء الفرنسيين الذين أكرههم بأن يُهزَموا من الألمان ٠

– أوه ، يا لك من مجنون يا يابادا ، يا لها من صفقةٍ كبيرة !

أعتقد بأنك لم تعد طفلاً رضيعاً منذ زمنٍ طويل ، و مع ذلك قد نكون على باطل ٠

–يابادا ، هوو ! يابادا٠٠٠ ، يابادا ، ياباداو !٠٠٠ ألمان و فرنسيون ، فرنسيون و ألمان : أليسوا هم التجار اللصوص دائماً ؟ إذاً لماذا هذا التغيير ؟ لقد استعبدنا الفرنسيون ، نحن على علمٍ اليوم بمحاسنهم و مساوئهم ، و هذا ما نعرفه و أؤكّده لك ، مع العلم أنني لا أجهل بأنهم يتسلون بنا كباكا ، ذلك القطّ المتوحش كما يفعل بفأر ٠

و في النهاية يقوم باكا بافتراس الفأر الذي يلعب به ، و أيّة فائدةٍ تُرجى من أن نتمنى قططاً أخرى غير التي نملكها ، بحيث ينبغي علينا عاجلاً أم آجلاً أن نقتل أو نفترس ؟

و مع ذلك ، فهذا لا يجنب قطيعاً من الثيران المتوحشة من أن يقع في قبضة نمر يرصده ٠

و شيئاً فشيئاً يحتدم النقاش و يصبح عاماً٠

– إن العجوز باتوالا على صواب ٠

– كلامه هو عين الحكمة ٠

– لماذا نتغير ، لقد فات الآوان ٠

- كان من المفترض أن نقتل الأوائل منهم مذ أتوا إلينا ٠
- لكننا لم نقم بذلك للأسف ٠
- يُفضَّل أن نستسلم الآن ٠
- نعم ! لنصون الفرنسيين ٠
- كما صُنّا قملنا ٠
- و من سيأتي بعدهم سيكون أسوأ منهم .
- و مع ذلك ، هم ليسوا فقط لا يحبوننا ، و إنما يحتقروننا و يكرهوننا أيضاً٠
- لنكن عادلين٠٠٠ و لنجعلهم يدفعون الثمن ٠
- لنقتلهم إذاً٠
- و هو كذلك ٠
- إيايايايا ياي ! سنقتلهم ٠
- يوماً ما٠
- ٠٠٠ ليس قريباً من السطوع ٠
- ٠٠٠ عندما تكون كل هذه القبائل ، بانزيري و ياكوما و غوبو و سابانغا و داكبا و كلّ من يتكلم لغة الباندا و

المانجدا أو السانغو ، قد تخلت عن صراعاتها القديمة ٠٠٠

– ٠٠٠ ياهايايا ! ٠٠٠ أصبحوا إخوة ٠٠٠

– في ذلك الوقت ، تستطيع يا ماكودي أن تصيد القمر بشباكك بكلّ سهولة ٍ ٠

– عندئذٍ سيصعد نهر البامبا من جديد إلى منبعه ٠

عاد الضحك من جديد و تواصل على هذه الحال ، حتى لم نكد نسمع إلا ضجةً غامضةً و بعيدة تبدو لوهلة أنّها تنبثق من الأفق ٠

ثم انتصب باتوالا بقفزةٍ واحدة ٠

– إمّا أنكم كلكم أولاد كلب ، صرخ بهم ، و هو ثمل من شرب الخمر ، أو أنّكم ثملون أكثر مني !

– هل أنتم رجالٌ أم لا ؟ أعتقد بأنكم لستم كذلك ٠

– ألم تخصيكم جماعة سينوسو[1] ٠ لا أعلم ، إذاً أجيبوني ! فأنا لا أستطيع أن أكرهكم ٠٠٠

[1] زعيم جمعية دينية إسلامية ، مقاوم للاحتلال الفرنسي في عام ١٨٥٥ في دجارابود ، و هي مفترق طرق القوافل و على تخوم ليبيا و مصر٠

يكفيني أن أتذكر تلك الأيام الخوالي حين كان الناس سعداءَ يعيشون بسلامٍ على طول نهر نيوبانغي الكبير ، و الذي يقع ماً بين بيسو - كيمو و كيمو - وادا ٠

أجمل الأيام هي تلك الأيام الماضية ! حيث لا همّ و لا غمّ و لا مطاط للتصنيع و لا طرقات للاستصلاح ، لم نكن نفكر إلا بالشراب و الطعام و النوم و الرقص و الصيد و مضاجعة نسائنا ٠

يابا ! لقد كان زمناً جميلاً٠٠٠ حتى ظهور البيض الأوائل ٠

كان أقراني و ذووهم يحملون تميماتٍ و قدوراً و دجاجاتٍ و حصراً و كلاباً و جدياناً و أطفالاً و بطاً ، عائدين إلى كريبدجه ٠

لقد كنت صغيراً في ذلك الوقت٠٠٠ حين كان يسود النزاع مع الجيران و بناء الأكواخ و زراعة النباتات ، و لم نكد نتنفس السلام حتى جاء التجار اللصوص ، و لا ندري من أين أتوا ، و استوطنوا كريبيدجه و سكنوا فيها للأبد ٠

فما كان منّا إلا و أسرعنا بوضع عددٍ من الخلجان[1] بيننا ٠ و نصل إلى غريكو ، على ضفاف نهر الكوما حيث

---

[1] هنا بمعنى المستنقعات ذات المياه الراكدة

مياهه عذبة و فيه الكثير من الأسماك ، فهذا المكان يعجبنا ، و لذلك فقد قررنا أن نتوقف فيه ، نفس هذه المعضلات تخيّم مؤخراً و بشكل طبيعيٍ على استقرارنا ، نزاعات مسلحة و استعادة الأراضي التي طرِدنا منها أعداءنا ، و ماذا أعرف في النهاية ؟ قد يكون كلّ شيءٍ ماضياً للأفضل لولا أن البيض ، و في يومٍ جميلٍ ، انقضّوا على غريكو كما ينقضّ العقبان على جثةٍ فاسدة .

نعود إلى الدغل مرة أخرى ، غريماري ! نحن في غريماري !! لقد وجدنا و في وقتٍ مبكرٍ مكاناً لأعمالنا ما بين البامبا و البومبو ، لقد طوّرنا باكورة أعمالنا ، لالالالا !

و لم نكد ننتهي من بناء أكواخنا و نستصلح أراضينا لتناسب مزروعاتنا حتى جاء هؤلاء الأنجاس البيض و استعمرونا .

و على الرغم من أنّ الموت دخل نفوسنا و كنا قانطين و متعبين و يائسين – كوننا فقدنا العديد من أخوتنا خلال الحروب – إلا أننا بقينا حيث نحن محاولين إعطاءهم صورةً حسنةً عنا .

كانت الضجة البعيدة تقترب شيئاً فشيئاً .

- إن خضوعنا ، تابع باتوالا القول وقد بدأ صوته يستشيط غضباً ، لم يستجد عطفهم تجاهنا ، وفي البداية كانوا غير راضين عن تطبيق إلغاء عاداتنا العزيزة علينا ، لكنهم لم يتوقفوا عن فرض عاداتهم علينا .

و على المدى الطويل نجحوا في تحقيق ذلك ، و النتيجة كانت أن الحزن الشديد سيطر علينا . و من الآن فصاعداً ، و في كل البلد الأسود ، عمل البيض على تبديد فرحة الحياة في الأماكن التي جعلوها أحياء لهم .

و منذ أصبحنا خاضعين لهم ، فقدنا حقّنا باللعب بالمال و لو كان بغرض المقامرة . لم يعد لدينا الحقّ بالسّكر ، فقد أصبح رقصنا و أغانينا يزعج نومهم ، مع العلم بأن رقصنا و أغانينا كل حياتنا ، نحن نرقص للاحتفال بإيبو القمر و لولو الشمس ، كنا نرقص من أجل كلّ شيء و من أجل لا شيء لم يكن يحدث شيءٌ إلاّ و نرقص من أجله فوراً ، و كانت رقصاتنا لا تُعَدُّ و لا تُحصى .

كنا نرقص رقصة ماء الارض وماء السماء و رقصة الريح و رقصة النمل و رقصة الفيل و رقصة الأجار و رقصة الأوراق و رقصة النجوم و رقصة الأرض و كلّ ما فيها ، كلّ الرقصات ، كلّ الرقصات .. بل يجدر بنا أن نقول بأننا كنّا نرقص كلّ الرقصات منذ عهدٍ قريب ، لأننا في الزمن الذي نحياه حالياً فإنهم لا يسمحون لنا

بالرقص إلا نادراً ، و أيضا يجب علينا أن ندفع ضريبةً للحكومة !

في الواقع كنا نخضع للتجار دون أن نفكر بالاعتراض ، في حال كانوا أكثر منطقيةً مع أنفسهم ، و المصيبة كانت بأنهم لم يكونوا كذلك ، فعلى سبيل المثال : منذ شهرين أو ثلاثة أشهر، يقوم أيُّ رجلٍ ثملٍ بضرب زوجته و هذا ما يعرفه أيّ رجلٍ أبيض ، عندما يقوم الرجل بضرب واحدة من زوجاته ٠

و أقسم لكم بالربّ الخالق نغاكورا ، بأنّه من أجل ضرب زوجة فلان ، فنحن لسنا أفضل ، لقد ضربوها لكم و أؤكد لكم ذلك ، و ليس لها إلا الجروح و التورمات ، و هذا أمرٌ لا شكّ فيه ، و التوبيخ هو المطلوب .. من منا لم يضرب واحدةً من زوجاته ؟

حسناً ، حتى هذه اللحظة كلّ شيءٍ كان طبيعياً ، و هنا تتعقّد المسألة .. و ما يثير الاستغراب ، كيف أنّ المرأة و بدلاً من أن تبقى في كوخها ، تلملم أذيال الهزيمة ، تذهب شاكيةً للضابط الذي كان يضيف عنده عدّة زوارٍ بيضٍ . أنا لا أبالغ إذا قلت لكم بأن ضابطنا يتمتع بالتواضع ، من النادر أن نجده عند رجلٍ أبيض ٠ في ذلك اليوم كان ثملاً لدرجة السقوط ، و لا يقدر أن يميز الجدي عن الفيل ٠

عندما رأى حالة المرأة التي عنّفها زوجها ، هاج كالعاصفة و استدعى جنديّاً و أمره بأن يُحْضر هذا الزوج الطيّب ليسوقه إلى السجن ، و بما أنّ الجندي كان مندهشاً من عدم التناسب بين الخطأ و العقاب ، فقد تقاعس عن تنفيذ الأمر . عندها استشاط الضابط غضباً ، و أمسك بقارورةٍ فارغةٍ و رمى بها على رأس ذلك البائس ، الذي سقط على الأرض و هو يتلوى من الألم ٠

حيال هذه الطرفة الجميلة ، انفجر البيض ، كلّ البيض بالضحك ٠

هكذا نُعَامل نحن في كلّ مكان ٠

حاول يا صديقي العجوز يابادا ، أن تخاطر و على مرأىً من الضابط أن تلعب القمار بفرنكين فقط ! سيكون السوط أدنى عقوبةٍ لهذه الجريمة النكراء ، فلا يحقّ إلاّ للتجّار بأن يلعبوا و يخسروا المال ٠

كانت عيونه محمرّةً من شدّة الغضب ، فصرخ متلعثماً :

إنّ التجار لا قيمة لهم ، فهم لا يحبوننا ، و مجيئهم إلينا لم يكن إلاّ لإرهاقنا و إزعاجنا ، فهم ينعتوننا بالكذب ، و هل كانت أكاذيبنا تخدع أحداً٠ و إن كنّا نجمّل الحقيقة أحياناً ، فلأنّ الحقيقة بحاجة لأن تكون جميلة ، فالمنيهوت بلا ملحٍ لا طعم له ، و هم يكذبون بلا سبب ،

و يكذبون كما نتنفس ، و لهم طريقتهم و ذاكرتهم ، و لذلك هم متفوقون علينا ، هم يقولون مثلاً بأن الزنوج يكرهون بعضهم البعض ، من مكان زعامة لآخر ، و لكن هل يمكن للتجار أو الرسل أو الجنود السود أو القناصين أن يتفاهموا مع الضباط ؟ و لماذا لا نتشبّه بهم في هذه النقطة ؟

و الإنسان مهما كان لونه هو إنسانٌ دائماً ، هنا كما في أوروبا ٠

إن الضوضاء الكبيرة التي كانت تشبه أزيز آلاف الذباب الأزرق و الأخضر المتجمع على جثة ، أصبحت من وقت لآخر أكثر وضوحاً٠

– أنا لن أتعب مطلقاً من الكلام ، قال هذا باتوالا حينئذٍ ، لن أتعب من التحدث عن هؤلاء التجار حتى آخر رمقٍ في حياتي ، فأنا ألومهم على قسوتهم و نفاقهم و جشعهم ، كم مرّة و عدونا منذ أن عرفناهم و لسوء حظنا ! كانوا يقولون لنا ، سنشكركم لاحقاً ، نحن نجبركم على العمل لصالحكم ٠

النقود التي نجبركم على كسبها لا نأخذ منها إلاّ جزءاً ضئيلاً ، نحن نشغّلكم من أجل بناء قراكم و طرقاتكم و جسوركم و آلاتكم التي تسير بواسطة النار على الخطوط الحديدية ٠

لكن الطرق و الجسور و هذه الآلات العجيبة ، أين هذا كلّه !

لا شيء ! لا شيء ! هم يسرقوننا حتى آخر قرشٍ بدلاً من القول بأنّهم لا يأخذون إلا الجزء اليسير مما نكسب من المال ! أفلا تجدون أن مصيرنا مثيرٌ للشفقة ؟...

منذ ثلايين شهراً قمرياً ، كانوا يشترون منا المطّاط بثلاثة فرنكات للكيلو الواحد ، و دون أيّ شرح و من يومٍ لآخر لم يدفعوا لكم إلاّ خمسة عشر قرشاً لنفس الكمية . و لهذا السبب و في ذلك الوقت ، فرضت الحكومة علينا ضريبة الرؤوس و تتراوح بين خمسةٍ و سبعةٍ و حتى عشرة فرنكات .

و ما من أحدٍ ينكر بأن عملنا لم يكن يكفي إلاّ لدفع الضريبة ، و ذلك في الفترة الواقعة ما بين الفصل الجاف حتى نهاية فصل الأمطار ، هذا إن لم يملأ جيوب ضباطنا خلال المناسبة ذاتها .

نحن لم نُخلَق إلاّ لدفع الضرائب ، و نحن لسنا إلاّ دواباً لنقل الأحمال ... دواباً ؟ و لا حتى كذلك .. كلباً ؟ هم يطعمون كلبهم و يهتمون بحصانهم ..،. و نحن ؟

نحن بالنسبة إليهم أدنى من هذه الحيوانات ، نحن أسفل من السفالة نفسها ، هم كانوا يرهقوننا ببطء .

اندفع حشدٌ ثَمِل خلف المجموعة التي تشمل باتوالا ، و كبار السن و الزعماء و غيرهم ٠

انطلقت الشتائم والمسبّات ، كان باتوالا على حقٍّ للمرة الألف ، كنّا نعيش بسعادةٍ قبل قدوم التجار ، كنا نعمل قليلاً و من أجل الاكتفاء الذاتيّ ، بحيث نأكل و نشرب و ننام ٠ ومن بعيدٍ لبعيد ، كانت تحدث نزاعاتٌ داميةٌ حيث يتم اجتثاث أكباد الموتى حتى تؤكل شجاعتهم و يتم الاندماج بهم – هكذا كانت أعمال السود قديماً ، و قبل مجيء البيض٠ في الوقت الحالي ، لم يكن الزنوج إلاّ عبيداً ، فلا أمل من عرقٍ دون قلب ؛ فهؤلاء التجار لم تكن لديهم رحمة ، ألم يتخلّوا عن أطفالهم الذين أنجبوهم من نساءٍ زنجيات ؟ هؤلاء الأطفال عندما يكبرون ويعرفون بأنّ آباءهم بيضٌ ؛ فهم لن يتنازلوا و يعاشروا الزنوج ٠

هؤلاء البيض و السود كانوا يعيشون منعزلين عنّا وكلّهم حقدٌ وحسد ، وكانوا منبوذين من الجميع و كلهم عيوبٌ و كانوا كسالى ٠

أمّا بالنسبة للنساء البيضاوات ، فمن غير المجدي التحدّث عنهنّ٠ لقد اعتقدنا و لفترةٍ طويلةٍ بأنهنّ ذوات قيمةٍ كبيرةٍ ، كنا نخشاهُنّ و نحترمهُنَّ ونجلّهنّ و كأنهنّ تميمات ٠

لكن كان يجب أن يكففنَ عن غرورهنّ ، فهنّ سهلات المنال مثل الزنجيات ولكن أكثر نفاقاً ويبعنَ ويشترينَ[1] أكثر منهنّ . لقد كنَّ غارقاتٍ بالرذيلة في حين الأخريات كنّ مهملاتٍ ، و لكن بماذا يفيد الإلحاح في هذا الموضوع ! و المصيبة أنهنّ يفرضن علينا أن نحترمهنّ٠٠٠

مد والد باتوالا العجوز يده و هدأت الضجة بنشوة ، لكن لم تهدأ الأغاني و لا الموسيقا و التي كانت تنتشر في جوٍّ دافئ و يعبق برائحة العطور ٠

– يا أولادي ، أنتم لم تقولوا سوى الحقيقة ، كان يتوجب عليكم فقط أن تفهموا بأنّه لم يعد هناك وقتٌ للتفكير بتصويب أخطائنا ، فلم يعد هناك شيءٌ نفعله حيال ذلك ، استسلموا ٠

فعندما يزأر الأسد ، لن يستطيع أيّ ظبيٍ الاقتراب منه ، طالما نحن لسنا الأكثر قوة منهم ، فلا نملك إلاّ أن نسكت ، و هذا من أجل أن ننعم بالطمأنينة ٠

اسمحوا لي أن أذكركم بالإضافة إلى ذلك ، بأننا لسنا هنا قطعاً لكي نلعن أسيادنا ٠ فأنا عجوزٌ و قد جف لساني خلال مجادلاتكم ، من الأفضل لنا أن نقلل من قدح البيض و نكثر من الشراب .. أنتم تعلمون مثلي ، و باستثناء

[1] هن اللاتي يبعن أنفسهن من أجل الحصول على المال ٠

السرير، بأنّ خمر البيرنو هو الاختراع الوحيد و المهم عند التجار ، من الممكن أن أكون قصير النظر ، و لكن و مع ذلك ، لقد لاحظت منذ هنيهةٍ عدّة زجاجاتٍ من خمر إبسانت ٠

يا ولدي باتوالا ، هل تودّ من باب الصدفة أن تخفيهنّ ؟

لقد أفرطوا في الضحك و ساد السرور دفعةً واحدةً .. و باتوالا الذي ضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، أسرع لكي يحقق رغبة والده الماكر العجوز بسخاء ٠ خلال ذلك ، ردد عشرة و عشرون و مئة صوتٍ حوله أغنية كوليكومبو ٠

كوليكومبو ، كوليكومبو، كوليكومبو
هو قزم
مادام الجو ممطراً
و الهواء يغيّر اتجاه العاصفة
و العاصفة تزمجر و تدور
و هو مختبئٌ في الكهوف
ليذهب و يسكن على المرتفعات
أي – هي ! أي – أي أي أي !
كوليكومبو ! كوليكومبو !٠٠٠

٦

ثم ساد المكان ضجةٌ كبيرة .

اقترب الصخب البعيد من غريماري ، وأصبح عند التقاء طرق بويامبا و بانغاكورا ، ثمّ اقترب أكثر حتى وصل إلى الحظيرة التي توجد فيها ثيران الضابط ، ثم تجاوز الجسر الممتد فوق نهر البامبا ، و نفذ فجأةً إلى مقر المركز العسكري. لم يعد هذا الصخب كبيراً و بعيداً، فقد حوله الرب الخالق نغاكورا إلى مجموعة من الشباب و الصبايا ، كانوا عراةً و أجسامهم أصبحت بيضاء من الرماد و المنيهوت – فليضرب الموت من لا يلاحظ هذه العادة – و كان رؤوسهم حليقة و عيونهم زائغة ، وكانوا يتقدمون و هم يرقصون ، كانوا يرقصون قفزاً على إيقاع

كلماتٍ تخرج بغنةٍ أو بأزيز بحيث لا يُفهَم منها شيء لأنهم كانوا يتحدثون بلغةٍ سريّةٍ يتكلّم بها المطّلعون عليها فقط .
رأيناهم ، كان هناك العديد من الصرخات التي لا يمكن إسكاتها و التي أخذت بالازدياد . هذه الصرخات تشبه أصوات طيور الطوقان التي تصدرها عندما تستيقظ مذعورةً ، ثم يقهقهون لفترةٍ طويلةٍ في ليلةٍ قمراء مليئةٍ بالنجوم .
هزّت هذه الفرحة الغريبة المفاجئة المتحركة و الفوضوية الجمهور و أثارته ..... كان المحاربون يمسكون أسلحتهم ، وكانت الكلاب تنبح ، و كان الأطفال يبكون ، وكانت النسوة وهنّ ثملات من الخمر ومن الضجّة يضربن بأقدامهنّ على الأرض و يصرخن قائلات :
غا – نزا ... غ – انزا ... غ – انزا !
و كانت جذوع الشجر تزمجر خفيةً .
يا لها من نشوة رائعة ! تبدو الأشجار و أوراقها فقط أكثر سواداً تحت بعثرة هذا البياض ،
لكن الأرض كانت بيضاء ! و كانت الجبال بيضاء ! و كانت الطرقات بيضاء كالغسيل الأبيض !
لكن لا تجري في نهري البومبو و البامبا إلا مياه ينعكس ضوء القمر عليها !
كان الجنود ينتظرون و هم جاثون خلف تروسهم و يمسكون الرماح القصيرة بأيديهم ، و على أنغام الطبول ، كانوا يقفون و يرفعون الرماح والتروس ، ثم اندفعوا نحو نهر البامبا ، و بعدها استداروا بسرعةٍ و عادوا إلى نقطة انطلاقهم و حناجرهم تصدح بأغنية تتغنى بجريمة قتل . كان المحتفلون يرقصون في مكانهم ، و كانت الطبول و الأغاني و آلات البالافون تُغرِق الجميع بالألحان الصوتية ، تبدأ مراسم الحفلة بالانتظام ، فهاهم اللاعبون الذين نعرفهم من خلال أرياش العصافير الطويلة

المغروزة في شعر رؤوسهم المجدول و في الجلاجل التي تُقرَع في أكفّهم ، و كذلك على ركبهم و على كواحلهم ٠
سواعدهم مهتزة و سيقانهم تصطدم ببعضها ، و كان اثنان من أصل ثلاثة يتصنعون ، أما تقطيبات وجوههم فكانت تزيد من فرحة الحضور .. كانت الإثارة تزداد تدريجياً حتى أصبحت أكثر هيجاناً ، ما بين التصفيق و التصفير كان يُسمَع صوت رنين جلاجل اللاعبين ، كانوا يرقصون و كانت الرعشة تسيطر على الجميع و تعيدهم إلى الوراء ٠
كان الأطفال يتقدمون و يذهبون إلى وسط مكان فارغ يحيط به حشد راقص يطوّق المطلعين[١] . كانوا يشيرون بأيديهم ويرفرفون و يجهدون أنفسهم لتقديم حركاتٍ بهلوانية ، ويحركون أيديهم وأرجلهم ويقدّمون أفضل ما عندهم لتقليد الأقوياء وهؤلاء الذين شاهدوهم يرقصون ، خلال الأمسيات المقمرة ، بالقرب من الأكواخ ، عندما يمحو الليل الآفاق الدافئة ٠
كانت النساء عارياتٍ و شعرهنّ مبللٌ بزيت الخروع ، يزين آذانهنّ و أنوفهنّ و شفاههن بالحُلي الملوّن ، و يلبسن في كواحلهنّ و أيديهنّ الأساور النحاسية ، و كلّ واحدةٍ منهنّ تستند بكتف من تتقدمها ، ثم تأتي نسوةٌ أخريات لاستبدال أولئك النسوة و ذلك لتشكيل دائرة كبيرة ، ثم يَدُرنَ كما تدور حشرة اليراعة عند الشفق ، ثم تفتح الدائرة بناءً على إشارةٍ من الطبول ٠
كانت النساء يحافظن على إيقاع الطبول و البلافون و ذلك بتحريك أرجلهنّ و أيديهنّ و أصواتهنّ حسب إيقاعٍ واحد ، و كان الإيقاع يتسارع ٠

---
[١] المطلعون على سر ، خبراء ، مدربون على ٠٠٠

كانت إحدى الراقصات رشيقة و مرنة و عيناها مغلقتان ، وأخذت مكانها وسط نصف دائرة مرسومة قبل الدائرة التي تفصلها عن قريناتها – أي كانت تتقدمهن قليلاً .
وبهذه الطريقة و على فرض أنّها سقطت ، ستكون راقصات الباليه اللاتي يرقصن خلفها لحمايتها ، و كذلك الراقصات الموجودات على أطراف الدائرة ، لمساعدتها على الوقوف مرةً أخرى .
قامت بثلاث خطواتٍ نحو الأمام – ثم سُمِع صوت تصفيقٍ باليد : واحد ... اثنان ... ثلاثة . ثم تُقدّم نفسها لشخصٍ خفي ، و لكنّها لاقت نفوراً و صدّاً ، عادت إلى الخلف أيضاً – واحد ... اثنان ... ثلاثة .
وأخيراً ، وعندما تعبت من كثرة الرفض المستمر لمبادراتها ، كدلالة على ضعفها و خزيانها، تركت نفسها تسقط على رأسها .
تلقفتها صديقاتها و ساعدنها على النهوض مرّةً أخرى ، و ذهبت و هي محبطةٌ إلى حيث تقتضي قواعد الرقص أن تذهب – إلى النقطة اليسرى من الدائرة ، بينما كانت تنفصل عن النقطة المقابلة لها إحدى زميلاتها التي كانت تحاول بدورها أن تعوض ما فشلت هي بعمله .
عندما جاء دور الرجال – إنه لهذيانٌ بالفعل ! لم يكونوا سوى أفواهٍ تصرخ بإفراط ، كانت وجوههم ملطخةً بالعرق ، كانوا يضربون الأرض بأقدامهم ويهزون بذلك الأرض من بعيد .
يا لها من صرخاتٍ و من ضحكاتٍ و من حركاتٍ ! مع وجود العديد من الرجال و النساء و البيرة و الخمر و الرقص ، فإنّ الفرح يتحول شيئاً فشيئاً إلى رغبةٍ حامية .
نرى حينئذٍ عشرات الرجال عراةً تقريباً ، وكان بيسيبنغي الأكثر جمالاً و قوة ، كانت عيناه تبرقان و كأنّها حريقٌ في الدغل ، و

كانت عضلاته مفتولة ، و كان يقود رفاقه و يسيطر عليهم بقامته الممشوقة الطويلة و العصبية الثخينة ٠
كانوا جميعاً يطلون أجسامهم باللون الأحمر و الشحمي و يحملون في كلّ مكان الأجراس و الجلاجل ، و كانوا يرتدون قبّعاتٍ من الرّيش و يلفّون حول خصورهم حبالاّ تفيدهم أيضاً في ستر عوراتهم ، كانت تنبعث منهم روائح قوية ، و من شدة تعبهم ، كان العرق يتصبب على وشومهم ، كانوا لا يشمونه و لا يكترثون إلا لرقصتهم و لا يُعيرون انتباهاً إلا لذلك ٠
إن الحياة قصيرة ، وسرعان ما سيأتي اليوم الذي سنصبح فيه غير قادرين على المضاجعة، وكلّ يوم تسطع فيه الشمس يقرّبنا من الموت ، لذلك فما علينا إلا الاستًفادة من أيامنا لنفرح من خلالها ، طالما نستطيع فعل ذلك ، و كانوا يرقصون و يرقصون .
كانوا ينحنون إلى الأرض و يلمسونها بأيديهم ويضغطون عليها لفترة تكفيهم للقيام بحركةٍ أو ثلاث حركاتٍ مضحكةٍ ، و دائماً هو باتجاه الأرض و أقدامهم كانت تضرب الأرض نحو اليمين و نحو اليسار ، ثم مرّةً أخرى نحو اليمين ، كانت أيديهم تعود للخلف فجأةً و تتحرك في الهواء و ترتفع و تنخفض أيضاً ، و ذلك كما تفعل أجنحة العقاب و هو يندفع في الجو على مهلٍ ، ثم يطير و يحلق بتراخ فوق الدغل الهادئ ٠
في النهاية ، كانواً يقفزون على أيديهم و أرجلهم و يقومون بحركاتٍ ، و كلّ ذلك على أنغام الطبول ٠

غانزا٠٠٠ غانزا ٠٠٠غانزا٠٠٠ غانزا !

سنحتفل بالغانزا

غانزا٠٠٠ غانزا ٠٠٠غانزا٠٠٠ غانزا !

كان رجلٌ عجوزٌ يمسك سكيناً بيده و يحمل حجاباً و يقف أمام فرقة الشباب ، و كذلك كانت هناك إمرأةٌ عجوزٌ تقف أمام فرقة الصبايا ٠

كان كبار السن ، و على غرار هذين العجوزين ، يضحكون عندما يرون هؤلاء الشباب يرقصون و أولئك الذين سوف يخضعون لاختباراتٍ طقسية ٠

غانزا٠٠٠ غانزا ٠٠٠غانزا٠٠٠ غانزا !

في هذا المساء ستصبحن جميعكن نساءً ٠
و في هذا المساء ستصبحون جميعكم رجالاً ،
و بعد ذلك تُجرَى لكم جميعاً عمليات الختان٠
غانزا٠٠٠ غانزا ٠٠٠غانزا٠٠٠ غانزا !
غانزا٠٠٠ غانزا ٠٠٠ غانزا٠٠٠ غانزا !

كان هناك أيضاً عجوزان يتكلمان :

– منذ فترة شهرٍ قمري أو شهرين ، كنتم تختبئون في أعماق الغابات ، لقد عانيتم وصمتّم ٠

– خلال شهرين قمريين و شهرٍ آخر ، غبتم عن عيون غير المطلعين[1] ، و كنتم تبيّضون أجسادكم حتى لا تضيّعوا طريق قرى الموت ٠

– لن تتكلموا إلاّ اللغة المقدسة ٠

---

[1] الناس غير الأتقياء٠

- ستقتاتون من الأعشاب و الجذور ، بعيداً عن عيون الناس غير الأتقياء ٠

- لقد نمتم خلال شهرين قمرين في أيّ مكان ٠

- في أيّ مكان و كيفما اتفق ٠

- كنتم محرومين من الضحك و من اللعب ٠

- إنّ الرب الخالق نغاكورا مسرورٌ منكم ٠

- لقد انتهت اختباراتكم ٠

- تستطيعون اللعب و الضحك و الرقص و الحياة كما ترغبون ، و تستطيعون الكلام و النوم كما ترغبون أيضاً٠

- ستصبحون قريباً رجالاً٠

- ستصبحن قريباّ نساءً٠

- و بعد قليلٍ ، سنقوم بإجراء الختان لكم ٠

- انتهت اختباراتكم ، لذلك تستطيعون أن ترقصوا و تلعبوا و تضحكوا٠

غانزا٠٠٠ غانزا ٠٠٠ غانزا٠٠٠ غانزا !

غانزا۰۰۰ غانزا ۰۰۰ غانزا۰۰۰ غانزا !

كانت آلات البلافون و الطبول تُصدِر أصواتاً قويّةً كالعاصفة ۰

كان يتوجب على الجميع أن يلتزم الصمت حتى تبدأ مراسم الاحتفال ۰

و بعناية استلَّ العجوزان سكينيهما وسناهما على حُصيّاتٍ مسطحة ، بعد أن بصقا عليها ۰

عندما تمت عملية الختان ، اندفع الحضور نحو المريض الذي كان يترنح ۰

و لكن إذا كانت معاناةٌ بسيطة كهذه لا تُذكَر تكفي لقتله ، فهو لا يستحق أن يكون رجلاً۰ و يتوجب عليه أن يموت من الألم و التعب و يخضع للعادات ۰

لكن ، و مخيباً لآمالهم بأن يموت ، المختون الجديد انضم لهم و الدم ينزف من الجرح حتى رجليه ، كان يلطخ جيرانه بكل رقصة إيمائيةٍ يقوم بها ، ينبغي عليه أن يظهر و هو متجاهلٌ ألمه ۰

غانزا۰۰۰ غانزا ۰۰۰ غانزا۰۰۰ غانزا
لا نقوم بها إلا مرةً واحدةً في حياتنا

غيرَ آبهين بالضجة ، تابع العجوزان عملهما ... لم يكونا يسمعان شيئاً و لا يريان شيئاً حولهما ، و كانا يتصرفان عفوياً على طريقة الحصّادين ، و الذين يحملون المجارف و يتقدمون بين مزروعاتهم في وقت الحصاد .

كانت الشابّات ، و بعضهنّ شاحباتٌ ، يرقصنَ و هنّ يستدرنَ ، كان الهلع - و على الرغم من كلّ شيء - يجعلهُنّ يرتجفنَ و لكنهنّ عاجزاتٌ عن فعل أي شيء حيال ذلك .

تقدمت العجوز و أمسكت إحدى الراقصات و أبعدت فخذيها عن بعضهما البعض بقسوة ، و جست بأصابعها ما يجب أن تجسّه ، ثم شدته كما تشدّ حبلاً من المطاط ، و بضربةٍ واحدةٍ – طراخ – قطعته ، و دون أن تلتفت رمت خلفها هذه القطع من اللحم الساخن و الدامي ، و كان أحياناً يسقط على وجه أحد الحاضرين .

ما قيمة هذا اللحم بالنسبة للفتاة ؟ فما إن يسقط على الأرض حتى تتلقفه الكلاب و تأكله

غانزا... غانزا ...غانزا... غانزا !

لا نقوم بها إلاّ مّرةً واحدةً في حياتنا...

نحن النساء ! ... و نحن الرجال !

لقد تم ختاننا و أصبحنا غانزا

غانزا... غانزا ...غانزا... غانزا..!

مسح منفذو الختان سكاكينهم ، عندما فرغوا من ختان المرأة الأخيرة و الرجل الأخير.

كانت الضجّة في أوجها ، فكلّ ما سبق لم يكن شيئاً.

فكلّ هذه الضجة و كلّ هذه الرقصات الغامضة لم تكن إلاّ تحضيراً لما كان الجميع ينتظره .. ألا و هو رقصة الحب ، و هي رقصةٌ لا تُنفّذ إلاّ في هذا اليوم ، فيُصفَح عمن يقوم بالرذيلة و الجريمة .

قُرعت الطبول و عُزفَت آلات البلافون بقوة . كانت طيور الطوقان تصيح بقوةٍ أيضاً .
وكانت الطيور الليلية تطير مذعورةً فوق نهر اليانغبا الذي يخفي نعيبهم من شدة هيجانه .
ظهرت في تلك اللحظات امرأتان اثنتان ، كانت ياسيغيندجا زوجة باتوالا الزعيم أجملها و الثانية لم تكن قد عرفت الرجال من قبل .
كانتا عاريتين و منتوفتي الشعر ، كانتا تزينان رقبتيهما بأطواقٍ زجاجيّةٍ ، وهناك خاتم يتدلى من أنف كلّ واحدةٍ منهما ليصل إلى الأذنين ، و كانت كلّ واحدةٍ منهما تضع أساور في معصميها و في قدميها ، و كان جسداهما قد تلونا بالأحمر الغامق و الداكن .
كانت ياسيغيندجا تضع زيادةً على تلك الحلي قضيباً ذكرياً[1] من الخشب المطلي .
كانت تضع حزاماً يشدّ قامتها ، و تعلّق ذلك المنحوت الذكوري على أسفل بطنها ، وهذا يشرح الدور الذي ستقوم به و هي ترقص .
في البداية ، لم تحرك إلا وركيها ، أما قدماها فلم تتحركا لكي تقولا شيئاً ، على الرغم من أن العضو الخشبي كان يقفز في كل مرة تحرك فيها وركيها .
ثم و ببطءٍ ، و ما إن تمشي حتى تتزحلق نحو شريكتها التي تعود إلى الخلف ، فهي لا تريد أن تستسلم لرغبة الذكر ! حركاتها الإيمائية و قفزاتها كانت تعبرعن خوفها .
ثم يعود الذكر أدراجه و هو محبط ، ثم يكرر محاولته ضارباً الأرض بعنفٍ .

[1] عضو الذكورة منتصباً، رمز الإخصاب في الميثولوجيا القديمة.

متراجعةً بسبب خوفها غير المبرر، تأتي صديقتها من بعيد ، كان يريد تقبيلها ، لم تُبدِ إلا مقاومةً بسيطة ، ثم استسلمت له و ذابت أمام هياجه كما تتلاشى الضبابة أمام الشمس الساطعة ، و مرّة كانت تُخفي يديها و مرّة عينيها و مرّةً أخرى عضوها التناسلي .

لم تكن إلاّ طريدةً مُرغَمةً ما لبثت أن استسلمت فجأة .

و بعد هنيهةٍ ، أضرمت جذوة رغبة الذكر و التي تأخرت في إرضائه ، و عندما أخذها الرجل بين يديه بعنفٍ ، أدرك بأنّه لم يعد يستطيع الانتظار – و هي لن تقاومه أبداً .

كان الإيقاع و الرقص يتسارعان و يواكبان ممارسة الرغبة بين الرجل و الراقصة حتى وصلوا جميعاً للإشباع ، فتوقفوا بلا حراكٍ و سعداء بعد أن اكتفوا .

سيطر الجنون دفعةً واحدةً على هذا الاضطراب الإنساني الذي يحيط بالراقصات ، فقد تخلّص الرجال من كل ما يستر عوراتهم و تخلصت النساء من وزراتهن المبرقشة . كانت الصدور تهتزّ ، وكان الأطفال يقلّدون حركات إخوتهم الكبار كما و كانت الروائح القوية المنبعثة من المضاجعة و من البول و العرق و الخمر حادة أكثر من الدخان نفسه ، و كانت تزداد شيئاً فشيئاً، وكان كلّ ثنائي يظهر و يرقص ، وعلى سبيل المثال رقصت ياسيغيندجا و صديقتها ، و كان هناك صراخٌ و زمجرة . كانت الأجساد ترتمي على الأرض حيث يقوم الراقصون بالكثير من الحركات ، كانت هناك نشوةٌ جنسيةٌ مضاعفةٌ بنشوةٍ كحولية . كانت فرحة هؤلاء الوحوش عارمةً ، لأنها مُعفاةٌ من أيّة مراقبة . كانت الشتائم تدوّي في المكان و الدم يتدفق عبثاً ، كانت الرغبة وحدها هي سيدة الموقف .

لم يعد يُسمَع قرع طبولٍ و لا عزف البلافون و لا أيّة آلةٍ نفخيةٍ . لقد أراد من نفّذ عمليات الختان أن يستفيد من هذه

البهجة التي أثاروها ، و التي كانت كبيرةً و مدعومةً و ضائعةً ضمن الحشد ، فقد كانوا يرقصون بدورهم رقصة الحب ، و هي الرقصة الأولى و التي تتفرّع منها كلّ الرقصات ، و لا تضاهيها أيّة رقصةٍ ، كانوا يرقصون ٠

خرج من بين الحشد بخارٌ ساخن يشبه الضباب الذي ينبعث من التراب بعد المطر ، و جاء ثنائي آخر و سقط على الأرض٠ و فجأةً هجم الزعيم باتوالا على هذا الثنائي ، و يده مطبقةٌ على سكّين ، كان يستشيط غضباً ، ثم رفع قبضة يده ليضرب بها لقد كان الثنائيُّ مؤلّفاً من بيسيبنغي و زوجته ياسيغندجا .

أصبح حامياً أكثر من نغوهيل ، ذلك القرد ذو المعطف الأبيض ، في حين توارى بيسيبنغي و ياسيغندجا عن الأنظار ، فقام باتوالا بتتبعهما ٠

آهٍ ! لقد بلغت منهما الفاحشة حداً جعلتهما يمارسانها أمامه ، لقد استحوذ على جسد تلك العاهرة ، بنت الفطيسة ! أما بالنسبة لبيسبنغي ، فقد يخصيه ! ستسخر منه كل النساء عندما سيخصيه !

ماذا ! ياسيغندجا ! ألم يدفع لها سبع وزراتٍ و صندوق ملح و ثلاثة أطواقٍ نحاسية و كلبة وأربعة قدورٍ و ثلاثين دجاجة و عشرُ عنزاتٍ وثمانين سلة كبيرة من الذرة البيضاء و أمَة شابة من العبيد !

سيكون حسابها عسيراً ، سيجعلها تذوق السم الزعاف ، و ثمّ٠٠٠٠

وبعد الضجّة و الهرج و المرج اللذين لا يوصَفان ، ساد ذهولٌ عجيبٌ و مفاجئ ٠

ثم ، وفجأةً بُدِدَت صرخة الصمت السائد ٠

– الضابط !٠٠٠ الضابط !٠٠٠

ثم كان الهرب نحو القرى ٠

– الضابط !٠٠٠ الضابط !٠٠٠

ثم ما لبثت الضجّة الناجمة عن ذلك الحشد الذي ولّى الأدبار أن تضاءلت شيئاً فشيئاً٠

و من بين ما تبقى من فضلات من كل الأنواع و من المواقد و المؤن و من الوزرات ، لم يكن هناك إلاّ رجلٌ مسن كان ينام بعمقٍ متكئاً على أحد الطبول ٠

– واحد٠٠٠ اثنان[١] !٠٠٠ واحد ٠٠٠اثنان !٠٠٠ واحد ٠٠٠اثنان ! إلى اليمين ! انتباه .....

كان يُسمَع وقع عودة جنود مركز البامبا ٠

– توقفوا ! هذا ما أمرهم به الرقيب سيلاتيغي كوناته ٠

وبعد فترة من الزمن قال :

– انتباه

وصل الضابط على حصانه الذي كان يصهل و هو يشمّ رائحة الإسطبل القريب من المنطقة ٠

– يميناً تراصف ! هذا ما أمر به الرقيب سيلاتيغي أيضاً٠

---

[١] في النص الفرنسي لفظت الأرقام بشكل مشوه

- ماذا تعني هذه الضجة ؟ يا ساندوكو ؟ هذا ما سأله الضابط للرقيب ، منادياً إياه باسمه البلدي ، من أين تأتي هذه الضجة التي كنت أسمعها منذ برهة ؟

- سيدي، هذان الغبيّان بولا وصديقه يأتيان إلى المركز لكي يتسكعا و يثملا ، لقد قال لي الناس ذلك منذ قليلٍ على الطريق .

- حسناً ... عظيم ... يجب على زعماء القبائل هنا و من الآن و بلا تأخير ، أن يدفع لي كل واحدٍ منهم غرامة تساوي مئة فرنك ، و إلا سيكون السجن و السوط و الضرب بانتظاره .

- حاضر سيدي .

- و من هذا الزنجيُّ الحقير الذي ينام هنا ؟

- هذا والد باتوالا .

- و ما الذي يفعله هذا المخبول هنا ؟

- أظنّ[1] بأنّه كان يشرب الخمر هنا ، أفلا ترى زجاجاتِ البيرة و الخمرة بجانبه ؟

- و فاحش أيضاً ، لم يكن ينقص إلا ذلك. يجب على باتوالا أن يأتي ليأخذ والده العجوز ، تلك الجيفة .. و

[1] إن لغة العسكري الفرنسية هنا ركيكة و ضعيفة .

أين بولا الأبله ؟ أين بولا ، ذلك العجل ذو الأقدام الثلاث ؟ آهٍ ! ها هو ! صباح الخير! صباح الخير سيدي ! أيّها الأحمق ، اغرب عن وجهي ! لا أدري ما الذي يمنعني عن تشويه وجهك الذهبيّ ! سيحصل ذلك ، و حتى تتعلم أن تحرس المركز جيداً خلال غيابي و أن لا تدع الفوضى تعمّ المكان ، هل تريد أن أسجنك مدّة خمسة عشر يوماً و أن أحرمك من راتبك خلال ثمانية أيام من مدة سجنك ؟ و الآن هيا ! أسرع ! لنرحل أيّها القذر ! و أيضاً ، أنا أمتدحك !

هل سيدي مستاء ؟[1] كلا ؟ سيدي ، بولا لم يكن يملك إلاّ أن يذهب ليشتكي للحاكم ، و الحاكم و إن ركض بسرعة فإنني سوف أمارس معه اللواطة.[2]

سيلاتيغي !... راحة للجميع ! اليوم سيكون يوم إجازةٍ للجميع ، اليوم الأحد ، سأنام نوماً عميقاً ، ولا أريد أن يزعجني أحد ، هذه هي تعليماتي ، مفهوم ؟ تفرقوا.

و من بين سحب الضباب الكثيف ، كانت الطيور تصيح ، لقد كان يوماً من أيام الفصل الجاف .

---

[1] نفس الملاحظة السابقة .
[2] كلمة باللهجة العامية .

٧

لم تكن كلّ الأيام أيام عيد ، فبعد الفصل الجاف ، يأتي فصل الأمطار ، ثم أغاني الحداد ، ثم أغاني الفرح ، و بعدها الضحك و من ثم الدموع ٠

رحل والد باتوالا إلى يانغبا عبر الدغل الأسود جداً و هي قريةٌ بعيدة جداً بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يعود منها ٠

ما من موتٍ أجمل من موت الإنسان و هو يَسكر ، فالثمالة تلغي أيّ ندمٍ ممكن . لأنّ الثمل يمر من مرحلة النوم إلى الموت ، حيث لا هموم و لا معاناة ، تزحلقٌ مستمرٌ و غير محدود في الظل ، فلا تفكير و لا مقاومة ، يا لها من لذة !

و لا شيء و لا شيء ، و نستريح أخيراً و في مكانٍ ما من أراضي الربّ الخالق نغاكورا ، إن لم يكن على أراضي كولبكومبو .. هناك حيث لا ذباب و لا ضباب و لا برودة ، أمّا بالنسبة للعمل فهو مُلغىً . و كذلك لا يوجد لا ضرائب تُدفع و لا صناديق تُحمَل ، و ماذا عن العنف و ضرائب الطريق و السوط ؟ لا ! لا !

طمأنينةٌ مطلقةٌ و سلام لا محدود ، لم تعد هناك حاجة للنظر و لا للتمني ، فلدينا ما يفيض عن الحاجة و حتى من النساء .

و منذ أن جاء التجار للاستقرار في بلاد الزنوج ، لم يعد أمام الفقراء السود الطيبين إلاّ الموت كملجأ لهم ، فهو الوحيد الذي يخلّصهم من العبودية . ولا يمكن أن يشعروا بالسعادة إلا هناك ؛ في هذه المناطق البعيدة و المظلمة حيث لا وجود فيها للبيض صراحة .

و منذ ثمانية أيامٍ و ثمانِ ليالٍ و الباكيات و النائحات يبكين حول جثة والد باتوالا المربوطة بشجرةٍ .

كان شعرهنّ رمادياً كإشارة حداد و وجوهنّ مطلية بالفحم الأسود ، و كنّ يلطمن صدورهنّ و أعضاءهنّ و يصرخن و يرقصن و ينتحبن .

و كان الحضور يتمتم بأغنياتٍ جنائزية .

بابا ، أنت الوحيد المسرور

و نحن من يشتكي

و نحن من يبكيك .

آهٍ ! لو لم تكن هذه العادة بتنشيط تعب الآخرين . و في النهاية ، فالميت ليس مهماً . فلا رجاء منه إلا الانتقام بعد الموت ، فهو لم يعد مثلنا ، و إنما يظهر بشكل روح الأموات .. بالمختصر، فهو لا يفيد القبيلة بشيءٍ ، مثله كمثل الورقة اليابسة أو كعظم مجرّدٍ من اللحم.

فقط و حسب العادات ، فإنّ كبار السن يأمرون بأن يُرافَق ، من يرحل إلى قرية نغاكورا أو كوليكومبو البعيدة جداً ، و التي لا عودة بعدها ، رقصاتٌ و أغنياتٌ حدادية.
لقد مات والد باتوالا بالتأكيد ، و لقد حان الوقت لدفنه في التراب ، فالعديد من الذباب الأخضر الكبير كان يتخبط على جثته المتفسخة المتعفنة نتيجة بقائها ثمانية أيامٍ طويلةٍ في العراء.

بابا ، أنت الوحيد المسرور

و نحن من يشتكي

و من جهةٍ أخرى ، فإنّ الصيد كان في ذروته ٠ في الوقت الحاضر ، و في كل مساء ، من كلّ الجهات ، كانت تتصاعد أدخنةٌ بخطٍ مستقيم نحو السماء ، تبشر بصباحاتٍ جميلةٍ٠
في كلّ مساء ، و على أصوات قرع الطبول ، كان النسيم يحمل بقايا العشب المحترق و النباتات العطرية و الرائحة اللاذعة للخشب الملوث بالغائط ٠
و بما أنّ هذه الفترة فترة الصيد ، فالعرف يقتضي بأن تُدفَن هذه الجثّة المملّة في التراب ٠
العرف ! لقد كنّا نميل لنسيانه قليلاً و عن طيب خاطر ، و تحت أنظار القدماء الحادة ، و بشكلٍ عام ، فإنّ كلّ الشبّان الذين يخدمون عند البيض يسخرون من هذا العرف ٠
بسبب جهلهم ، هؤلاء الشباب هم بشكلٍ إراديٍّ هزليون ، فهم يسخرون من العجائز و حكمتهم ، فهم لا يحاولون أن يفكروا ، يعتقدون بالأحرى أنّ الضحك يساوي المنطق٠
لكن ، إنّ العرف خبرة كبار السن و من هم أكبر منهم ، لقد كدّسوا فيها كلّ معرفتهم ، كما يكدّسون المطّاط في السلة ، أليس من العبث أن تُترَك الجثة في العراء مدة ثمانية أيامٍ ؟ لأنّ العرف يقتضي ذلك ٠
هذا الانتظار الطويل و الذي يصفه البيض بالغباء ، يقّدم ميزةً كاملة لعائلة الميت بحضور مراسم الجنازة ٠
في الواقع ، الرجل يتنقل بدون توقف ، مثله كمثل كلّ زنجيٍّ ، فهو هنا ليومٍ واحدٍ ، و غداً سيكون هنا ، و في ما بعد سوف يختفي أثره ٠
و بسرعةٍ كان قارع الطبل ينادي ونداؤه قد وصل و انتقل ، كان يقفز من وادٍ إلى وادٍ آخر، مجتازاً الجبال العالية و ماراً

بالأحراش ثم يذهب و يركض و يتدحرج من مستنقع لآخر و من قريةٍ لأخرى ، و ذلك لنقل خبر الوفاة للجميع ، ومن يهمّه الأمر ، يستطيع أن يسرع ليصل مبكراً إلى حيث يجب أن يكون ، وهذه إحدى الأسباب التي تجعل الموتى ينتظرون طويلاً في العراء .
لهذا السبب خصوصاً و إلى الآن ، فإن قدماء القدماء ، ومن بين مجموعة أمور ، لاحظوا بأنه أحياناً من يُعتَقد بأنه ميت ، قد لا يكون كذلك .. لقد شاهدوا جثثاً تتحرك و تعود للحياة في اللحظة التي يُقَرر فيها دفنهم . و من هذه النقطة ، فقد استنتجوا أنّ الشخص قد يكون نائماً لعدّة أيامٍ على شكل الميّت ، مع أنّه في الواقع حيٌّ يرزَق .
قولوا بعد ذلك بأننا على خطأ بترك الموتى في العراء و لفترةٍ طويلةٍ .
من رحل إلى بلدٍ بعيدٍ مظلم ، فإنّ جسده لن يتأخر عن التفسخ ، لن يتكلم لغة الأحياء ، و إنما سيشرح لهم من خلال عفونته ، رغبته في كونه دُفِن .
كيف تريدون من البيض أن يترجموا هذه اللغة الصامتة و أن يقبلوا حكمة العرف ؟
هكذا كانت أفكار باتوالا ، كان يحكيها بصوتٍ منخفضٍ لبيسبينغي ، و كلاهما يشاركان في الجنازة و كانا يجلسان جنباً إلى جنب .. في الواقع ، لقد تصالحا عشيّة حفلة الغانزاس و كانا يبدوان أكثر ارتباطاً ببعضهما بعدما ألقيا اللوم على الثمالة ، كونهما كانا متهيجين بسبب الدعارة و الدم ، لكن بيسيبنغي كان يعلم بأن باتوالا يبيّت له نوايا الانتقام ، و باتوالا يعلم بأنّ بيسيبنغي يعلم ذلك . فالأبيض إن غضب فإنّه ينتقم مباشرةً أمّا العادة عند كلّ القبائل كالباندا أو مانجاس أو سانغو أو غوبوس فهي غير ذلك ، الانتقام ليس بطعام يؤكل ساخناً. فعلى العكس تماماً ، يفضّل إخفاء الحقد من خلال المودة ، و هنا تلعب المودّة دور الرماد

الذي ننثره على النار لكي تخمد أي تسهم في كظم غيظ باتوالا و لو لفترة قصيرة .
يجب أن يُوضَع كلّ شيءٍ تحت تصرف العدو مثلاً : الأكواخ و المزروعات و الدجاج و الماعز و حتى المال ، و إن أمكن يجب تلبية طلباته أيضاً ، ينبغي ألا ندعه يشكّ بشيءٍ ، و يجب ألا نهمل شيئاً حتى نتوصل إلى ذلك .
يمكن للعبة المغفلين هذه أن تدوم طويلاً ، و ما يجب فعله هو الانتظار. و ما الحقد غالباً سوى عبارة عن صبرٍ طويل و ما على المنتقم إلاّ أن ينتظر الفرصة السانحة لكي يُسمم من كان يظهر أمام العيان ، خلال أيام و ليالي ، بمثابة الصديق الحميم ، يسممه و يقتله و يفعل كما يفعل النمر .
أها ! أها ! طريقة النمر ؟ فهذه أيضاً من الأشياء التي يجهلها البيض ، إيهيه !
هي طريقةٌ للموت اختارها باتوالا خصيصاً لصديقه الحميم بيسيبنغي .
إن موروِ النمر حيوانٌ متوحشٌ يتسكع عبر الدغل ، خاصةً في الليالي الظلماء ، غير المقمرة ، و بمخالبه و أنيابه المعوجّة و ببطءٍ يقطّع فريسته و يمزّقها ، و بفمه ذي الشعر يشمّ الدم قبل أن يشربه ، ذاك الدم الذي يحبّه ، و الدم الذي يدخنه ، يتدحرج عليه و يتمرغ فيه و يثمل منه بعد الذبح و يمصّه بشفتيه متلذذاً لفترةٍ طويلةٍ و هو يبحث عن رائحته القويّة العنيدة .
و حتى يُقلّد باتوالا النمر ، ذات مساءٍ أسود ، اختبأ و انتظر في الدغل و ذلك على الممر الجبليّ الضيق الذي يتوجّب على الضحية أن تسلكه .
لم يشعر بهذه العفونة الرطبة ، الحارة الغريبة و النباتية السامّة .

ها هي الضحية ! و بقفزةٍ عنيفةٍ أصرعه ، ثم أخنقه ، بعد ذلك وبسكينٍ مسنونةٍ بحجرٍ صلب و بأسنانٍ حديدية ، أقطع له أوردة عنقه كما يفعل النمر ، و أمزق كلّ أعضائه إرباً إرباً كما يفعل النمر .
هذا ما كان يفكر به باتوالا ، و كذلك بيسيبنغي كان يفكر تقريباً بالشيء نفسه .
أها !! المشهد الرائع سيكون رؤية جثة ذلك العدو العجوز .

بابا ، أنت الوحيد المسرور

و نحن من يشتكي

و نحن من يبكيك .

كان هناك طفلٌ يلهو مع عظايةٍ غريبة لها ذيل الحرباء الأخاذ[1] .
الناس كلهم تعلم بأن الحرباء تتغير تبعاً للمكان الذي توجد فيه ، فهي تصبح سوداء و خضراء و صفراء و حمراء .. لكن هل كان دجوما ، ذلك الكلب الأحمر ذو الأذنين المدببتين يعلم ذلك ؟

كلا ، لم يكن يتوجب عليه أن يعرف ذلك .

و لهذا السبب كان ينبح بأعلى صوته و هو خلف الحرباء .

---

[1] هو وصف يطلق على كل عضو يتميز بخاصة الالتقاف و الأخذ كاللسان و الذنب في بعض الحيوانات و الحشرات . المترجمة .

و خلال ذلك ، فإن كوسيينده ، الهزيل و الذي جعله مرض النوم مجنوناً ، كان يغني و هو بحالة الجنون هذه ، كذلك كان يسمع صوت غناء الفوسيرو المأتمي و صوت الطفل الذي يلعب مع العظاية و نباح دجوما و نحيب الباكيات .

أطلق باتوالا إشارةً ثم نهض .

ثم مددوا الجثة و وضعوها على إحدى الحصر التي يستخدمها الأحياء ٠

كان صوت قرع الطبول يختلط بصوت مغنيات الفوسيرو المأتمي ٠

سوف نأخذك أخيراً

إلى مثواك الجديد

يا والد باتوالا

لا تأسف على الحياة

في بلادنا هذه

ستكون أكثر سعادة هناك

سوف تأكل و تشرب

إلى أن تكتفي و لن تشعر

لا بجوعٍ و لا بعطش

و لن يلزمك أكثر من ذلك ٠

انتهت التحضيرات النهائية للدفن ، و وصل الجميع إلى المكان الذي سوف يوارى الثرى بقايا من كان إنساناً٠

لقد اختير هذا المكان ليس ببعيدٍ عن كوخه الذي كان يسكنه في أواخر حياته ٠

كانوا قد حفروا حفرتين دائريتين تحيطان بكوخه و كانتا عريضتين و عميقتين تتصلان برواقٍ تحت الأرض ، تم إنزاله بواحدةٍ من هاتين الحفرتين ٠
تزحلقت عبدة في الحفرة الأخرى من خلال الرواق تحت الارضي و شدّت قدمي من كانت روحه تسافر في عالم الأحياء و تخرج منه بعد أن مُدِد جسده على الأرض ٠
الآن و هو ممدد على الأرض كان والد باتوالا يرقد و ينام جالساً ، و يا له من نومٍ أبدي !
تمت تعبئة الحفرة الثانية حيث تصل قدما الميت الممدتان بالخشب و بالتراب ٠
لم يشمّ رائحة هذه الثقالة الغريبة الرطبة و الحارة النباتية و الديدانية ٠
بينما هو راقدٌ ، يتمّ تكديس الخشب فوق رأسه الجامد ، هو لا يعلم شيئاً ، و حتى عيناه المغلقتان لن تُفتحا مطلقاً .. و فوق هذا

الخشب الجاف ، وضعوا حصيرةً و فوق الحصيرة كدّسوا التراب ، و هذا التراب سوف ينعجن معه و سيصبحان من أديمٍ واحد ٠

ما من أهميةٍ لهذا بالنسبة له ، فهو نائم ، و بالفعل عندما يرقد المرء هذا الرقاد ، يَضَع عبثاً على الأرض كل ما بحوزته من الوزرات و على ملابسه تُوضَع كلّ الطناجر التي كان يستعملها و كرسيه الطويلة و كل ما عنده من غلاوينه القديمة ، إذاً يتم تحضير كل ما يلزم الميت ليحيا حياة الموتى ٠

حقاً ، إنّ الخشب الجاف و الحصيرة يمنعان التراب إذا ما سقط أن يزعجه في نومه .. و علاوةً على ذلك ، لديه في متناولٍ يده قدوره ووزارته الاعتيادية ٠ و هكذا ، إن افترضنا بأنّ رغبةً ما اجتاحته ليذهب ليلاً ، رغم موته ، ليشرَّد بين قرى الأحياء . و كذلك يستطيع إن جاع ، أو عطش ، أن يطبخ و أن يروي عطشه ، و أن يلبس فيما لو شعر بالبرد ٠

و لكن ، هذا كله كان احتمالاتٍ ، فهو ينام نوماً أبدياً !

أنت في بلاد الكوليكومبو
بين قدماء القدماء
و ذات يومٍ سوف نلتقي بك

لقد انتهى كلّ شيءٍ نهايةً جيدةً .

رقصوا حول الحفر و حول النار الكبيرة التي أضرموها ، لقد حطّموا كلّ الأثاث الذي كان يملكه المتوفى ٠

ذات يومٍ ، سوف نلقاك
أنت في بلد الكوليكومبو
بين قدماء القدماء

هبط الليل و جاءت معه البرودة ٠

كان يُسمَع هناك و على طريق بويامبا ككلّ مساءٍ زئير الأسد بامارا ٠
كانت حشرات القطرب تنير الظلمات بحركتها المضيئة الدقيقة الوامضة ٠
وكذلك على نار الجمر الذي كان يدفّئ رقاد باتوالا و أقرانه ، كانت تُسحَق ذباباتٌ صغيرة[1] تولَد في الليل ثم تموت بعد ذلك ٠
مرّت عدّة أيام ٠
لقد هُدِم بيت المتوفى ، و حُطِّم القضيب الذكري المصنوع من الخشب المثبت أمام بيت من كان ربّ الأسرة ٠
لقد رحل القائد و هُدِم بيته و خُلِع ذكرٌ من قبيلة كوليكومبو لم يعد ينجب مطلقاً ، لقد كُسِر من كان منذ فترة قريبة يرمز للرجولة ٠
و لم يعد أحد ، مع ذلك ، يفكر بذلك الميت ، فلكل شخصٍ مشاغله الأخرى و الأكثر أهميةً و ضرورة ٠
كان يجب اكتشاف ذلك الموهوب ذي العين الحاسدة التي سببت موت والد باتوالا ٠
نحن خُلقنا لنعيش ، و إن متنا فهذا يعني أنّ شخصاً قد أصاب شخصاً آخر بعينه الحاسدة أو قام بسحرٍ ضد آخر ، هنا يجب البحث عن الساحر ٠٠٠
وبعد ذلك ، آه ، جاء موسم الصيد ، أي ها !
كان هناك بينغيه الخنزير ذو القرنين و فونغبا الخنرير البري ، شقيقه الأحمر الذي يعيش بمفرده ، و كانت الكلاب تتضارب بضربات عنيفة ٠٠٠ !

---

[1] ذبابات صغيرة تُخلق و تعيش ليوم واحد ثم تنفق ٠

أي ها ! كانت الثيران المتوحشة تخور و تهجم على بعضها و تتدافع و تحثّ الخطى و ذيولها المستقيمة و قد أغشى أبصارها الدخان و زفير الشهب ٠

ماذا عساها تكون قد أمسكت حلقات شبكات الصيد الكبيرة !

أرانب ، ظباء ، جرذان ! فالدم يتدفق ! عندما تزبد أو يسيل اللعاب من الأمعاء و من الأنوف و من الخطوم !

تتسارع لعبة الرماح القصيرة و سكاكين الرمي و السهام و الشوك !

والكلاب لاهثة تنبح و هي معلقة بجوانب الحيوان الذي تريد نهشه ٠

فأيّ موتٍ مهما عَظُم شأنه يستطيع أن يساوي متعة هذا الحدث و فرحة هذه الحركة و نشوة هذه المذبحة ، و أخيراً كلّ ما يشكّل سبب حياتنا ؟

٨

كانت الشمس قد بدأت بالنزول خلف بيتها المشيّد على تخوم الأراضي اللامرئية ٠

إنّ الشمس ، تلك العجوز الطيّبة و العادلة ، كانت تشرق على الجميع من أعظم شخصٍ إلى الأكثر تواضعاً٠ لم تكن تفّرق بين غنيٍّ أو فقير و لا بين أسود و أبيض٠

ومهما كان لونهم ومهما بلغت ثروتهم ، فكلّ الناس هم أولادها ، فهي تحبهم جميعاً بمساواة ، هي تشجع مزروعاتهم ، و تبدد الضباب البارد و المستتر من أجل راحتهم ، و تمتص المطر و تطرد الظل ٠

آه ! الظل ، فهي تتبعه إلى حيث يسكن و دون شفقة و دون كللٍ أو ملل ، فهي لا تكره شيئاً مثله ، فأشعتها تريح المريض و تسرّه عندما يشعر بمداعبتها الحارة لجسده ٠

إن الضوء هو الصحة و الفرح ، و الشمس الطيبة الشابة و العجوز هي كل ذلك ، و هي أيضاً البهجة الواسعة و الهادئة لكل هذه المسافات الشاسعة التي تحتضن الحياة ٠

و كل ما لا يستطيع الإنسان تعلمه أو بلوغه فهي تعلمه و تبلّغه إياه ٠

و الناس يشبهون الماء المتتابع و المتدفق في النهر منذ فصول المطر المتتابعة ، فهم ينجبون أطفالاً والأطفال بدورهم سيكبرون و سينجبون أطفالاً في ما بعد ٠

إنّ العشب يأكل التراب و الحيوانات تجترّ العشب و الإنسان يُفنِي العشب و الحيوانات ، و كلّ شيءٍ يموت ٠ حيث توجد الأكواخ و الدخان و الحياة و القطعان و المزروعات و القرى - تنمو الأدغال التي ستختفي يوماً ما ، و ستنضب الأنهار ، و بالفعل يريد البشر أن يعتقدوا بأنهم سيعيشون من خلال أحفادهم ، و العائلات الأكثر قدماً سوف تختفي مثلما تختفي و تنطفئ جمرة تحت المطر ٠

غير أن لولو ، تلك العجوز الطيبة – التي لا تشكّ بأن القمر إيبو الذي يسطع في المساء سيهرب منها – فلولو العجوز دائماً شابة فهي الشمس الساطعة و المنيرة ، كما في السابق و اليوم و غداً ، فهي سيّدة آلهة السماء و الأرض و على العوالم المندثرة سوف تشرق بشكل أزلي ٠

كان بيسيبنغي ينتظر و هو مضطجعٌ على بطنه المسطح و ذلك على واحدة من أعلى ذرا جبل كوسيغامبا ٠

أحياناً كانت الأفعى كوكورو الملتفة على غصن شجرة ، تفتح فمها و تجهّز أنيابها السامة لكي تعضّ أو تلتهم الشمس ، و أحياناً ، كانت تتثاءب ثم تغيّر مكانها و تعود لسكونها ٠

و هذا الصغير ، هذا المكان الأصفر الصغير العاري و المتألق ، هناك كان مركز البامبا ، لقد كانت غريماري ٠

و من هذا البيت الصغير و المشيّد على أطراف ذلك المكان الصغير و المتألق العاري الأصفر كانت تخرج كلّ الأوامر التي تنصاع لها كلّ القبائل مثل المبيس و الداكبا و الماندجيا و اللامباسي ٠

كان يراقب و بفضل فتحةٍ معتمةٍ من بين الأشجار التي تقع على ضفاف البامبا و الذي تدفق عبر جبال الكاغا الجرداء ٠

عندما كان يمشي كان يسبب ذعراً للشياهم ، و هي حيواناتٌ تتغذّى على الأرانب و الجرذان في نفس الوقت ، و كان يمشي

على الحصى و يثير الغبار ، كان يدندن بعض الأغنيات و هو يسير و يعلق الرمح على كتفه ٠
يصل لنقطة التقاء نهر الديلا مع نهر البامبا - لا يهم - لنذهب لأبعد من ذلك ، نمشي و نمشي أيضاً ، لم نعد نرى كوسيغامبا ولقد تجاوزنا قرية يابادا وكذلك مرتفعات جبل ماكالا ٠
هناك القليل من الوديان ، لكنّ الأكواخ منتشرة في كلّ مكان - إنها أرض اللامباسي ، و هي قرى قبائل الليسا ٠
في كلّ مكان نرى المزروعات و السهول و السهول و السهول و في نهاية السهول ملتقى نهري الديكا والكاندجيا٠ وذلك لأن نهر البامبا قد تغيّر وأصبح في الكاندجيا ، ووحده الربّ نغاكورا يعلم كيف و لماذا !
ثم بعد ذلك تأتي قبائل أخرى و التي لا يعرفها مطلقاً ، ثم يأتي نهر نيوبانغي ، النهر العظيم وهو أب تلك الأنهار ٠ في زمن الفيضانات ، يوجه البيض قوارب ضخمة إلى مدينة موباي، وهي قوارب تمشي دون مجاذيف و تنفث الدخان من خلال أنبوب أشبه بغليونٍ ضخم ٠
لقد زار كلّ الأقاليم ، كانت جميعها غنيةً بالثيران المتوحشة والمهمة كثيرة بالنسبة للصيد ٠
لكن سيكون من الأفضل ترك البيض حيث هم و الاهتمام بذلك الخائن ، و هو الرجل الأكثر دناءةً و الأكثر خيانةً بين الرجال – و البيض طبعاً غير مشمولين بصفة الرجال ٠٠٠
كان الملل اللامنتهي يسيطر على الدغل الذي يبدو ميتاً ، لقد كانت الحرارة المنبعثة من الدغل مشابهةً للمعدن المنصهر في مصهر الحداد ٠
و كانت بندقية صيدٍ قديمة تنفث أيضاً دخاناً أسود وهي تطلق النار على سربٍ من العقبان ٠

منذ شهرين قمريين و من شروق الشمس حتى مغيبها كان الناس يحرقون الأعشاب ، و منذ شهرين قمرين فإنّ هذه الحرائق كانت تنير دياجير الظلمات ، كان النسيم الذي يمجّد قذف اللهب يحمل صدى فرقعتهم اليابسة ، و كان بيسيبنغي ينتظر ٠
وعلى الممرّ الجبليّ الضيّق الذي يحاذي كوسيغامبا ، ظهرت امرأةٌ ترتدي نوعاً من العرائش، كانت تتقدم ببطءٍ و في فمها غليون وعلى رأسها يوجد ثمرة الدباء[1] التي تسندها بيدها ، لقد عرفها بيسيبنغي ٠
كانت هذه المرأة هي ياسيغندجا ، لقد جاءت صدفةً إلى الموعد الذي كان قد أعطاها إياه سابقاً٠
كانت عيناه جامدتين ، كان مستاءاً ، فالنساء لا يرتدين إلا لثمانية أيام فقط في الشهر وزرات من هذا النوع ، و دائماً لنفس السبب ٠
ففي القبائل الأخرى يكون اللباس عبارةً عن قماشٍ أسود أو أزرق أو أحمر بدلاً من العرائش أو القشور المهروسة ، و لكن بلون مغاير ، و ذلك لنفس السبب ٠
و فضلاً عن ذلك ، و كلما اقتربت كان يستطيع أن يعطي تفاصيلها ، كانت تلف جبّتها بخيطٍ رفيعٍ أحمر و كان شعرها أشعث .
لقد سنحت فرصتها ، عندئذٍ كان واثقاً من امتلاكها في النهاية ، لكن ربما تكون مصابة بالمرض الذي يصيب كل النساء في كل شهر قمري يخلقه نغاكورا !
توقفت أمامه و صافحا بعضهما بقوةٍ ، ثم جلسا بجانب بعضهما البعض بصمت ٠

[1] عبارة عن ثمرة مجوفة تفيد قشرتها كإناء ٠

لماذا يخفيان نفسيهما أكثر من ذلك ؟ فلم يعد هناك ما يخيفهما في الوقت الراهن ، كلّ الناس في الصيد . أصبحت كلّ القرى المأهولة بالسكان خاليةً ، و لم يعد يسكنها إلاّ كبار السن و المرضى أصحاب العيون الميتة – بمعنى لا يمكن أن ترى شيئاً – و النساء بعد الولادة ، و الماعز و الدجاج . أمّا بالنسبة للكلاب ، كانت دجومات كل القرى تقتفي آثار أسيادها .

كان بيسيبنغي معجباً بياسيغندجا ، كم كان يشتهيها حقاً. كانت الشمس نفسها تجري في أعضائها ، في اللحظة الراهنة ، و ذلك من خلال الحبال الزرق حيث يجري الدم !

لكن ، لماذا تضع في عنقها طوقاً فيه ثلاث طبقاتٍ من الأصداف ؟ و لماذا تضع في قدميها خواتم ثقيلة من النحاس الأحمر ؟ لقد كانت فاتنة ، كانت قطعة صغيرة من الخشب تنزل من أعلى شحمة أذنها اليسرى ؛ و قطعةٌ أخرى معلقةٌ على طرف منخرها الأيمن ، كانت هذه المجوهرات تمنحها منظراً مميزاً لا يليق إلا بها .

كان صدرها مسطحاً و وركاها عريضين و فخذاها مدوّرين و ممتلئين و كاحلاها ناعمين ، فقط كان شعرها لا يناسب هذا الوجه و هذا الجسم الرائع .

في الواقع ، إنّ كلّ امرأةٍ في فترة الحيض يتوجب عليها بشكلٍ مؤقت ألا تهتم بأناقتها .

كانت هي أيضاً تراقبه خفية .

كان بيسيبنغي يتمتع بهذه القوة و الطراوة معاً و هذا هو عين الجمال في الذكور : هيكله العظمي تام و كتفاه و صدره موفورو العضل ، ليس لديه بطنٌ بارز ، قدماه طويلتان و مكتنزتان و قويتان .

عندما كان يركض كان يسبق مبالا الفيل الذي يفرّ هارباً و هو يصأي[1] .

– بيسيبنغي ، يجب أن أراقب نفسي ، قالت ياسيغندجا ، يجب أن أراقب نفسي أكثر من أيّ يومٍ مضى .

لقد صرّح الساحر بأنّ والد باتوالا قد مات بسبب ذنبٍ اقترفته ، و يبدو لي بأنني أنا من أرسل له هذه الروح الشريرة .

احمني يا بيسيبنغي ، احمني ! فأنت قوي ، إن لم تتدخل بيني و بينهم فسوف يقتلونني .

أشعر بأن باتوالا يتصرف بالخفاء ، لقد استطعت أن أتجنّب حتى الآن الأفخاخ التي ينصبها لي هو بنفسه أو ينصبها لي غيره . في أحد الأيام و بحضوري تم ذبح دجاجةٍ سوداء ، و في ما بعد تُرِكت بمفردها ، كان يجب كما جرت العادة أن نقوم باستشارةٍ حيال هذا الأمر .

سقطت الدجاجة على الجهة اليسرى عندما ماتت ، و هذا يعني ، يا بيسيبنغي ، أنني لست مذنبةً ، و يجب القيام بالبحث عمن سحر العجوز باتوالا .

عندما أستشرت كبار السن ، فإنّهم لم يقبلوا بوضوح هذه العلامة ، هل يجب أيضاً أن أنتظر حتى يحكموا عليّ قريباً بشرب سم الامتحان .

---

[1] صوت الفيل .

بالتأكيد ، أنا لا أخاف منهم كلهم ،وسوف أرتشف السم دون قرف على سبيل المثال، و سأشرب الكثير منه ، إنّها الطريقة الوحيدة التي ستجعله غير فعال ٠

لكن إن هربت من الخطر الثاني هذا ، فكيف سأتجنّب الآخرين ؟

بالتأكيد ، إن من سيقومون بتعذيبي لن يتمنوا أن ينهوا كذبهم كما تجري العادات في حالات مشابهة لحالتي ، يعطونني امرأتين و عبدتين ! سيفضّلون أن يسكبوا السم في عيني .. ستموت عيناي لأني لا أعرف ما هو مضاد السم الذي يحميهما من نتائج اللاتشا (السم) ، عندئذٍ سيصرخون كلّهم بأن نغاكورا قد تكلم و أن لديهم دليلٌ على ذنبي ، سيضربونني و سيرجمونني[1] ٠ و كلّ هذه الكلاب المسعورة ، و الذين يكرهونني لأنني رفضت إغراءاتهم ، سوف يستغلّون ضعفي و يدنسونني بلعاب شتائمهم ٠

يريدون يا بيسيبنغي أن أغمس يدي في الماء المغلي ! سوف يضعون الحديد الحامي على ظهري ! بيسيبنغي يا بيسيبنغي سأتحمل عذاب الجوع و العطش ، سأشعر

[1] الرمي بالحجارة ٠

بالبرد و بعد ذلك سيدفنونني و أنا على قيد الحياة بجانب والد باتوالا حتى يكظم غيظه بموتي هذا !

أنا أشتهيك يا بيسيبنغي ، أنت تعلم جيداً بأنني أريدك أنت و - أنت فقط - و هل هذا ذنبي أننا و حتى الآن لم نتضاجع حتى نؤكّد كلانا فعالية أعضائنا ؟

أنا غيورة و مراقَبة و أنت أيضا مرصودٌ و يغارون منك ، لو قيل لي بأنّهم يراقبونني في هذه اللحظة فلن أندهش أبداً .

لكن ، هل ترى بأننا كدسنا وضاعفنا العراقيل ، فالماء يجري دائماً باتجاه الماء ، وحتى الجبال نفسها على الرغم من ضخامتها لا تستطيع أن تمنع نهرين من الاتحاد مع بعضهما البعض ، و أيضاً وحتى تكون رغبتك مساويةً لرغبتي سأكون لك خلال عدّة أيامٍ ، لك فقط و ليس لغيرك .

و لك القرار ...

خفت حرارة الشمس ، كانت الطبول و الأبواق العاجيّة تُبَلّغ الدعوات . عند ذلك علم بيسبينغي بأن باتوالا ينتظر قدومه ، و لن يكون غيره من سيحرق أراضي صيده الممتدة بين قرية داكبا دي سومانا و قرية نغابو دي ياكيد جي .

تابعت ياسيغندجا القول :

هل تحقد علي اليوم يا بييسبنغي ، آه ! بلى ! حتى أمُكّنك من نفسي ، لقد تأخرتُ عليك بسبب تأثير القمر على دمي – لا تضحك من صدقي – لقد فعلت ذلك بفرحٍ .

لسوء الحظ ، فنحن معشر النساء لا نستطيع فعل شيءٍ حيال ذلك ، عندما نكون في الحيض فما علينا إلاّ أن ننتظر ، و هذا تعرفه جيداً٠و تعرف أيضاً بأنني أريدك أكثر مما تريدني ! أشعر بحرارةٍ في المنطقة الموجودة تحت بطني عندما أتحدث معك ٠ كلّ جزء من جسدي يريدك و هو لك ، لقد طلبتني ، و أنا قدِمْت ، و عندما أنتهي من فترة حيضي ، سأمكّنك من نفسي ، سيكون جسدي الأكثر سريّة سعيداً بأن يكون بمثابة غمدٍ لخنجرك[١] ٠ إلى أن يتم لك لنهرب ! سأطبخ لك و سأغسل ثيابك و سأكنس بيتك و سأزيل الأعشاب الضّارة و سأبذر مزروعاتك – كل ّذلك بشرط أن نهرب ، هل تريد ذلك ؟ سنذهب باتجاه بانغي ،أنت ستتطوع هناك كعسكريّ مجند ،هل سيجرؤ وقتها أيّ إنسان أن يشتكيك ؟

لا أحد ، حتى باتوالا نفسه ، لأنه ليس عبثياً ألا يفهم الضباط إلا ما يريد عساكرهم لهم أن يفهموه ٠٠

[١] هي استعارة بمعنى العضو الذكري ٠

هيا لنرحل ! لا أريد تناول السم ، لا أريد أن أغمس يدي في الماء المغلي ، لا أريد أن ينكمش خصري تحت تأثير الحديد الأحمر الملتهب ، لا أريد لعيني الموت ، لا أريد أن أموت ، أنا تلك الشابة و الخالية من الأمراض و القوية أستطيع أن أعيش فصولاً و فصولاً أيضاً ، و معنى أن أعيش هو أن يضاجعني الرجل الذي أشتهيه ، و أن أشتمّ رائحة شهوته ٠

نهض بيسيبنغي و تمطّى .

بدأ قرص الشمس يتحول إلى اللون الأحمر الداكن في الأفق ، لم تعد العصافير تزقزق ، و ساد الصمت الذي كان يسود في الصباح عند بزوغ الشمس و في المساء عند مغيبها ٠

– إن كلامك صحيح يا ياسيغندجا ، و هو بحاجةٍ لتفكير ٠

و من جهةٍ أخرى ، أقسم بالرب نغاكورا بأنّك ستكونين محترمة و لن تُلمَس شعرةٌ منك دون أن تكوني لي ٠

لكن ليس الوقت مناسباً للهرب ، انتظري موسم الصيد حتى ينتهي و بعدها سأذهب للتطوع كجنديّ ، كما يسميه البيض - في مركز بانغي العسكري - فهناك سيكون لديّ بندقية و خراطيش و سكينةٌ كبيرة أضعها على الجهة اليسرى في حزام من الجلد ، سيكون هندامي جيداً و سألبس خفين في قدميّ وسأضع على رأسي قلنسوة ،

و سيكون لي راتبٌ في آخر كل شهر قمري ، و في كلّ يوم أحد عندما ينفخ في البوق للانصراف سوف أنصرف إلى القرى لعمل ما يعجب النساء ٠

يضاف إلى هذه المميزات المباشرة ميزاتٌ أخرى أكثر أهمية ، فعلى سبيل المثال : بدلاً من دفع الضرائب سنساعد نحن على تحصيلها ، و سنتوصل لذلك عن طريق نهب القرى المفروضة عليها الضرائب و من سرقة أموال من تقاضى راتبه ، سندقّ المطاط و سنجنّد رجالاً لتسخيرهم في حمل الصناديق ٠

هذا هو عمل المجند ، أسياده ورجالهم يغدقون عليه الهدايا على سبيل العطف عليه٠ تطييب الخاطر الصغير هذا يجعل حياة المجنّد لطيفة و طريفة و سهلة ، بل لذيذة ، و كلّ ذلك يتم ما دام الضباط البيض لا يعرفون إلا قليلاً لغة البلد الذي يحكمونه ، و ذلك يعني بلدنا ولغتنا ، و بالنتيجة ، هل يمكن لقريةٍ إلاّ أن تكون كريمةً ؟ سنخترع قصّة من تلك القصص الجميلة و التي لا بداية و لا نهاية لها و نقدمها ساخنةً لهذا الضابط الممتاز ٠

هذا الذي هو دائماً على حق و رشيد و بعيد النظر ، سيبدأ أولاً بزجّ الجميع في السجن : كالدجاج و الزعماء و الكلاب و النساء و الماعز و الأطفال و العبيد و المحاصيل ، و يبيعهم أحياناً في المزاد العلنيّ ، ثم

يضيف لمال الضرائب المال الذي يحصل عليه من هذه الطريقة ٠

يحدث أيضاً أن يتقاسم الضباط مع أصدقائهم الماعز و الدجاج ، إلا إن يكونوا يودون تقديم ذلك هديّة للحاكم حتى يتذكر لطفهم في موسم الترفيعات ٠

ففي هذه الحالة يتقاسم المجندون الكلاب و النساء و المحاصيل ٠٠٠

في الواقع ، قلّما تجد ضباطاً مسالمين يجرؤون على القيام بهذه الأعمال المؤسفة ٠ و لحسن الحظ فهم ليسوا جميعاً متشابهين ! و إلاّ بحق الربّ نغاكورا ، إلى أين كنّا سنذهب ؟ في الواقع ، إنّ الضّباط المحاربين أكثر عدداً ٠

هؤلاء سيركبونك خيولاً هائجةً تقفز و تروث و تصهل بشكلٍ متقطع ، أو لا يمشون إلا على استقامةٍ واحدةٍ خلال الجري ٠

و الخدم و خدم الخدم و خدم خدم الخدم يلحقون بهم بحيث تصادف فجأة ، و كسرب من العقبان ، أكواماً من الأشخاص المساكين و المذهولين ، هؤلاء يكونون كذلك بسبب ذهولهم ٠

عندما تنتهي الحملة ، يرسل الضّباط برسائل سريعةٍ أجزاءً من الورق للحكومة ، و على هذه الأوراق تدوّن انتصاراتنا و انتصاراتهم ، فالكذب لا يكلّف شيئاً بالنسبة لضباطنا ! و الجميع سيكون مسروراً : نحن لأننا سخرنا منهم ، و هم لأنهم قصوا قصصاً رائعةً مستوحاةً من خيالهم – و خيالنا .

و لهذا سأذهب يا ياسيغندجا ... اسمعيني... هم يطلبونني مهما كلف الأمر ... سأذهب ...

لتكن طريقكِ التي تسلكينها موفقة يا ياسينغدجا !

لتكن طريقكَ التي تسلكها موفقةً يا بيسينغي !

رأته يبتعد و يهبط و يبتعد ، وازنت عندئذٍ على رأسها ثمرة الكرنب كمؤونة ، ثم و ببطء مشت في طريقها هي الأخرى .

ثم خيّم ظلام خفيف مليءٌ بالنجوم ، و فاحت في الجوّ رائحةٌ زكيةٌ من نباتاتٍ عطريّة ، و كان الظلام يحيط بالأشعة الحمراء الصادرة عن نيران الدغل .

ظهر في السماء خط مقوّس يشبه سكين الرمي و هو مضيءٌ بدقة .

لقد كان القمر ، وكانت نجمةً منيرة تضيء و هي بعيدة عنه وسط فضاءٍ فارغ و أزرق داكن.

سعادة وديعة وأنوار هادئة ، في خضمّ روعة الحياة هذه ما من شيءٍ سيىء يعكّرها،   ولا ينقصك إلاّ تأمّل الصمت ٠

كان صوت الطبول ، والذي تخنقه الرياح المعاكسة لاتجاهه من خلال المسافة ، يصدح في الليل ٠

٩

مشى بيسبنغي ليلاً وهو يحمل قوساً وسهاماً و عبةً و رمحاً قصيراً عريضاً وثقيلاً مصنوعاً من الحديد ، وكذلك معه زوجٌ من سكاكين الرمي وخُرجٌ فيه مؤونةٌ، ومعه خنجرٌ موضوعٌ في حزامٍ موصول بكوع يده اليسرى ٠

مضى سائراً هكذا في الليل الطويل دون قلق ولا عجلة و بأقلّ ضجةٍ ممكنة وأذن صاغية وعيناه في ترقب ٠

منذ متى يختفي هكذا في ظلام الليل و هو يحمل جمرة في يده اليمنى ؟ و كيف يمكنه أن يعرف ذلك ؟

فلا يمكن إلاّ للتجّار أن يعرفوا ذلك كونهم يتشاركون الوقت بقطع مسافات متساوية كهذه ، و من الضروري حساب تلك المسافات من خلال حبسها في علبة صغيرة و برشاقة تتم حركة عقربي الساعة الاثنين و أحيانا الثلاثة و إن اختلفت بالطول و السرعة ٠

و يمرّ جبل كوسيغامبا و نهر بوبو الصغير – يا للروعة ! ثم يغتسل فيه ، و يمرّ بقريةٍ صغيرةٍ بجانب النهر و قد بناها أحد أفراد الزعيم ديلبو ، و الطريق إلى المركز العسكري أصبح على

بعد رميةِ رمحٍ قصير من نهر البامبا ، يمرّ أيضاً بإسطبل المركز و هو بجوار مقبرة البيض ، ثم الجسر الموضوع على نهر البامبا فالمركز أخيراً و هناك توجد مزروعات و بستان خضار للضابط ، وعنبرٌ يأوي العديد من القادة و الأفراد و رجالهم في موسم سوق المطاط .

و بعد أن يجتاز البومبو و يصل قرية باتوالا ، يهرب باتجاه أحد الأكواخ المهجورة التي كان يعيش فيها الصياد البحري ماكودي ، هذا الرجل الذي علّمه أين يمكن أن يكون ّباتوالا موجوداً بالضبط .

وهو يَهمُّ بمتابعة طريقه بناءً على المعلومات التي زُوِّد بها ، أضاف ماكودي عدّة توصياتٍ غامضةٍ ، وعدم وضوحها يجعل بيسيبنغي يستوعب كم هي حياته معرّضة للخطر .

لكن للأسف لا يمكنه أن يتأخّر لأنه يجب عليه التحرك و بسرعةٍ أيضاً .

و للحظة راودته فكرةٌ بعدم الذهاب للدعوة التي تلقاها ، لكن و هو يفكّر بذلك اقتنع بأن امتناعه عن الذهاب يبدو غريباً ، و علاوةً على ذلك ، ممّ يخشى ؟

كان ذاهباً للقاء باتوالا بين رجاله ، و الفرصة لم تسنح بعد للقيام بخطوةٍ خاطئة .

الحظّ السعيد ٠٠ كان يواكب أصوات الأبواق و طقطقة الشعلات و نداء الطبول و ترددات الصدى ٠٠٠

هل يتوجب عليه التحرك ! أو الموت ! و كيف ؟٠٠٠

كان الطقس جميلاً٠٠٠ قرع طبول ٠٠٠ و وطاويط ٠٠٠ و بوم ٠٠٠ و حشرات القطرب ٠٠٠ و نيران ٠٠٠ و من بعيد ٠٠٠ تظهر سماءٌ تشعّ بنجومها و قطرات الندى و قطرات الندى ٠٠٠

آهٍ ! لقد كان الجوّ جميلاً٠٠٠

نعم ، لكن ٠٠٠ ما هو القرار الذي يجب اتخاذه ؟ بالتأكيد قد لا نقتله هذا المساء ، سوف لا نغتاله أمام شهود ٠٠٠

حسناً ، لكن كيف سيتخلص هو من باتوالا ؟

امممم ! قليلٌ من السمّ سيقوم بالمهمة !! سيخلطه بطعام و شراب باتوالا خلسة ٠

طريقة النمر كانت أيضاً مغرية ، استخدام الرمح القصير كذلك ليس مثيراً للاشمئزاز ٠ فقط هاتان الطريقتان تتركان دليلاً٠٠٠ أمّا السمّ ، فلا ٠

كانت عيناه ترمقان الأرض حتى لا يصطدم بالجذور و الحصى ، كان بيسيبنغي يمشي مستنيراً بضوءٍ أحمرَ و كان يتّقد بفعل الريح حتى يصل نوره إلى السماء ٠

ثمّ رمى جمرته ٠

بينما كان يفكر – بأنّه من جهة بويامبا و من كلّ الجهات يمكن للحريق أن ينشب و يتسلق الجبل ، ويمكن للشعلات أن تكبر و تتفاقم بشكلٍ مفاجئٍ و أن تتشبّث بالصخور أو أن تحترق في مكانها ، أو أن تحيط بشجرةٍ هزيلةٍ ثم تتسلق قمتها لتلتهمها بالتدريج و حتى بعد أن تهوي على الأرض و هي تضيء الليل بنور لهيبها .

هل يجب انتظار الفرصة لتسنح ؟ كلا ! هل يجب إثارتها ؟

كلّ المشكلة كانت تكمن هنا ٠

ليكن الجهد الأخير ! كلّ ألسنة اللهب وصلت الى قمة الجبل و كوّنت باتحادها وهجاً كبيراً ، و منه كان ينبعث دخانٌ أحمر مُسودّ ٠

هل سيقتل باتوالا – أم باتوالا هو من سيقتله ٠

ليكن الكلام صريحاً ، إن قيامه بالقتل يجعله يبتسم أكثر من أن يقتل هو ، لأن المرء عندما يكون شاباً وتكون النساء جاهزة لإرواء رغباته فحياته تكون مفعمةً بالسحر ٠

نظر حوله - فالحرائق ناشبةٌ في كلّ مكان - و الجبال تشبه المشاعل المتوهّجة في الليل ، يجب عليه أن يقتل باتوالا !

انظر ، انظر ، انظر ! ٠٠٠ فحوادث الصيد لا تزال قائمةً حتى نفكر بذلك قليلاً و من وقتٍ لآخر ! هدفنا هو حيوان و نريد قتل رجل ، و لم يخلق الناس كلهم مَهَرةً ! و أفضل رام يمكن أن يخطئ هدفه ، إيهي !

و ماذا عن نيران الدغل !

كم من الفقراء يموتون متفحمين كلّ عام ! فالنار تلتهم كلّ شيء دون أن تعرف ماذا تفعل و إلى أين تذهب ، و ما علينا إلا أن نطيل قيلولتها كثيراً و في مكانٍ آخر بحيث تنشب في مكان الصيد ، تمضي النار و لا تحترم إلاّ الماء – و عندما تستشيط غضباً سينتهي كلّ شيء ٠٠٠

اذاً ، هل سيكون حريق الدغل أم حادث صيد ٠

ثم شخر شخرةً ....

لنبصق ! يا لها من رائحةٍ نتنة ! بالتأكيد كان يوجد هنا إنسان ، فالإنسان من بين كل الكائنات الحية تكون رائحة فضلاته مقرفة و لا تُحتَمَل ٠

فهي تلتصق بأنفك لتقول لك بأنها ملتصقةٌ بك ٠

ما هذه القذارة ! بالتأكيد كان رجل في هذا المكان ٠

نظر حوله و بكثير من الانتباه لم يسبق أن فعله مسبقاً ٠

في المساء ، كلّ منعطفٍ على الطريق الجبلي يمكن أن يشكل كميناً ، فمن الحكمة توخّي الحذر ٠

آه ! هناك وكرٌ في الأرض و فوق هذا الوكر يتوضع وكرٌ آخر بشكلٍ طولاني ٠

يأخذ يمينه لأن الفطر الموجود فوق الوكر يتجه نحو اليمين ٠

ثم مبتعداً أكثر يجد على ارتفاع كتفه غصناً مكسوراً و عند قدميه قطعة مشذبةً من الخشب ثم عشب الدغل ٠

كانت رؤوس كلّ هذه الأشياء تتجه نحو اليسار و تميل نحو اليسار ، وممرٌ جبلي صغير موجود هنا ٠

كان يخضع لهذه الإشارات الدلاليّة بشكل عفويّ٠ يخطئ التجّار عندما يظنون بأن الدغل لا حياة فيه ، فهو على العكس يتكلم من الصباح حتى المساء كما تفعل المرأة العجوز ٠

كان الصوت المنبعث من الطبول ، و ذلك من خلال القرع على طبلتين و نداء الأبواق و الصرخات التي تقلّد العصافير و الإشارات الناجمة عن النار المتّقدة في أعالي الجبال و العشب الممتد وسط مكانٍ جميل و وكرين متوضّعين فوق بعضهما حسب

العادة الثابتة و مجموعة الأوراق المجدولة بطريقة معينة و أصوات الخشب المتداخلة في بعضها البعض – و التي تصدر أصواتاً أو تكون مضئية أو ثابتة – هذا كلّه يشكّل لغةً حيّة و تشكل غنىً لا يُحصى

حمداً لهذه الغابة ! نحن نعتقد بأنّها ميّتة ، فهي حيّة و حيّة كثيراً ، و نحن لا نتكلم إلاّ مع أولادها ، ومعهم فقط !

دخانٌ و أصوات و أشياء جامدة ، فهي تستخدم اللغة التي تريد لتخاطب الأمكنة التي تسيطر عليها ، الأمكنة التي ينبت فيها الشجر والعشب و ترعى فيها الثيران البريّة ٠

حمداً لهذه الأدغال التي فيها الجبال و المستنقعات و الغابات و السهول !

نباحٌ يُلقي الشتائم ، و يهدد و مشعل المطاط المنكمش ، و صوتان ثملان ، لقد كان باتوالا و أمه العجوز و دجوما ، ذلك الكلب الأحمر ذو الأذنين المدببتين ٠

لقد وصل بيسيبنغي ٠

لكن كيف سيقتل باتوالا ؟ هل عن طريق حادث صيد أو نار في الدغل ؟ و على كل حال يتوجب عليه حالياً ألاّ يفكر بالدفاع عن نفسه أكثر من أن يفكر بالهجوم ، و لأنه و على الرغم من كل التحذيرات التي تلقّاها فقد وقع و من دون حذر في شركٍ كبير قد نُصِبَ له !

١٠

لقد فهم بيسيبنغي على الفور التهوّر الذي قام به دون أن يحسب حساباً كافياً للدلالات الغامضة و الثمينة التي أعطاه إياها ماكودي ٠

لقد فات الأوان في الوقت الراهن ، فقد استُدرِجَ إلى كمين و سلم نفسه إليه كطفل . كان يبدو كلّ شيءٍ في البداية متوقعاً ، كان باتوالا ثَمِلاً لدرجة الإقياء و كان قد نصب مخيمه في فسحةٍ من الغابة بعيدةٍ عن الطرق التي يرتادها الناس و هي تحاذي أو تجتاز نهر البومبو ٠

هل من شهود ؟ ما من أحد ! أو بالأحرى نعم ، هناك اثنان إذا عددنا والدة باتوالا ودجوما ، ذلك الكلب الأحمر الصغير ٠

نستطيع أن نعتبرهما لا أحد ، فالأم و إن لم تكن فاسدةً لن تسلّم ولدها مطلقاً ، أمّا بالنسبة لدجوما !٠٠٠ ياباو ! فبالتأكيد لن

يكشف شيئاً مهما حصل ، لأنه لا يمكن لإنسانٍ أن يتذكّر بأنّه رأى كلباً ناطقاً ٠

حسناً افتح عينك يا صديقي بيسيبنغي أيها الطيّب !

جلس منعزلاً و غرز عبوة السُمّ في الأرض و استلّ خنجره .. و الآن أصبح بمقدوره أن يهجم عليه .. وانتقامه قد يكون سريعاً ، سوف لن يأكله دون شراب .

لقد رفض كلّ الأطعمة و بيرة الذرة البيضاء التي قُدِّمت له و تظاهر بعدم رؤية خيبة أمل مضيفيه ٠

– لقد قدّم لي ماكودي البطاطا و السمك ، قال ذلك بكلّ بساطة ، لقد أغدق عليّ المؤن ، فأنا لا أكذب عليك يا باتوالا ، يمكنك أن تجسّ خرجي ! أنت ترى جيداً بأنني لا أحتاج لشيء ٠

داعب دجوما الذي جاء ليلعق يديه ، كان هذا الكلب الأحمر الصغير يتدحرج على الأرض فرحاً ، عطس مرتين أو ثلاث مرات على طريقة الكلاب التي لا يمكنها أن تفعل أكثر من ذلك عندما تكون سعيدة ، و كذلك هزّ ذيله و هو ينبح و يعضّ لاهياً أصابع من كان يداعبه ٠

لكن دجوما كان يشبه كلّ الكلاب ، و هكذا توقّف عن اللعب مع هذا السافل ٠

و بما أنّ هذا السافل قد يبدو بأنه قطعاً أخذ الكثير من الوقت ليستوعب ، فإن بيسيبنغي قد رجمه ٠

خلال ذلك ، كان باتوالا و هو أكثر قبحاً و ثمالة قد نهض ليرقص بعدة وجوه رقصة الحب ، كان يعتقد بأنّه يرقص ، بينما هو يترنح برأسٍ وقدمين ثقيلتين وعينين حمراوين متورمتين .. ارتطم أخيراً بجذعٍ وتمدد على طوله مُطِلقاً ضحكةً كبيرة ٠

و في الحال أخذ دجوما يتسكّع و هو ينبح حول سيده ، هذا المقلب الضاحك الذي سببه هذا السقوط غير المتوقع قد أعجَب كثيراً هذا الكلب !

– هذا الحادث المفاجئ قد وقع مرّةً مع ليلنغو ، قال ذلك باتوالا و هو ينهض ٠

في الواقع سأكلّمك عن ليلنغو ، و من المحتمل ألاّ تعرف كلمة خيانة من القصة التي ألمّح لك عنها ٠

إذا كان الأمر كذلك ، ضع أذنيك بالقرب من فمي لكي أقصّها على مسامعك ٠

في ذلك الزمن و كما هو الحال في أيامنا ، فإنّ الأرض لا نهاية لها بدغلها و غاباتها و أنهارها و أبناء مورو النمر و أبناء مبالا الفيل ٠

كان الناس موجودين في ذلك الوقت و البرودة أيضاً ، و كانوا سعداء دون البرودة ، فهم لم يشتكوا إلاّ منها ، و هي التي تحرم أعضاءهم من النعومة ، وهي التي تُقَصّرُ فترة نومهم ٠

ظلّوا يشتكون حتى أحضر القمر إيبو ليلينغو ، و اسمه الثاني سيفالو ، و أوكل إليه كيفية تعليم الإنسان استخدام النار ٠

من مقر القمر ايبو إلى الأرض تكون المسافة طويلة ، و للذهاب بسرعة أنزل إيبو ليلنغو بوساطة حبلٍ طويلٍ جداً ، و كان هناك جذعٌ يتعلق به ، و يجب ألاّ يجرّ هذا الحبل إلاّ في حال ضرب ليلينغو بضربات طبل على الجذع الذي يمتطيه ٠

و عرف الناس فيما بعد ، و بفضل ليلينغو ، بأنّ النار تطرد ليس فقط البرودة ، لكنها تُدفِّئ الأعضاء و تطبخ الأطعمة و تُنَوّر الظلام ٠

لقد كان صديقهم المفضل ، كانوا يسألونه عن كل ما يبدو غامضاً ، لكن شيئاً فشيئاً و من كثرة اختفاء الكائنات الحية من محيطهم ، فقد أصبح الخوف يداهم قلوب الناس، أين تذهب أرواح تلك الحيوانات التي تنام يوماً ما حتى لا تنهض من جديد ؟

لقد حاولنا عبثاً أن نكلمهم و نمدحهم و أن نلاطفهم ، لكنّهم لم يكونوا يجيبون بلغتهم ، كانوا يبقون هنا دون كلامٍ أو حراك ، كان الذباب ينغمس في مناخيرهم الفاغرة و يتركون فيها كومةً نتنةً من اليرقانات و الديدان .

استدعوا مرّةً أخرى عِلْمَ ليلنغو والذي لم يعرف بماذا يجيب حتى يخفف مخاوفهم ، فاستدعى سيّده القمر إيبو و قال له :

- إنّ جنس البشر خائفون و مذعورون من الموت و يرجونني أن أسألك هل هم خاضعون للقوانين الناظمة للحيوانات .

- اذهب بسرعة و أدخل السكينة إلى قلوبهم يا ليلنغو الطيّب ، و قل لهم بأني خلقتهم على صورتي ، أنا سأموت أيضاً و سأعود للحياة بعد ثماني ليالٍ من اختفائي .

أنزل الحبل ليلنغو على حصان وضعه على جذعه ، كان يتشبث بالحبل بيديه الاثنتين ، و كان يفكر و هو شارد بالكثير من الأمور ، ترك الحبل فجأةً و هو يظنّ بأنّه وصل ، لكنّه سقط في الفراغ !

فمن غير المفيد التأكيد بأنّه مات نتيجة هذا السقوط ، و منذ ذلك الوقت و الناس يموتون أيضاً .

كان بيسيبنغي يصغي لباتوالا ، و كانت أفكاره تذهب و تعود ، و كان باتوالا يخفي أسراراً و وحدها فقط الأسرار القديمة تكون معرفتها مقبولةً ، لكن حذار ! فالموت له - بيسيبنغي - قد تقرر ، فلم يكن إلا تحت رحمة فرصةٍ ما ، و ربما تكون بعد لحظة ٠٠٠

– النار يا باتوالا ، هل تتكلم عن النار ؟ قال ذلك و هو يضحك .. أنت تدّعي بأنه بناءً على أمر إيبو أنزل ليلنغو التعليم للناس ؟ هذا ممكن ! و مع ذلك لم يكن ذلك رأي القبائل التي كانت تعيش على ضفاف نيوبانغي ، حسب أولئك الناس ، وُجِدَت النار من خلال جد جدود دجوما ، انظروا كيف :

ذات يومٍ كان أوّل كلبٍ يلهو بنبش الأرض ، كانت الكلاب تعشق هذه اللعبة ٠

و ما إن حفر حفرةً عميقةً بما يكفي حتى بدأ ينبح نباحاً طويلاً مؤلماً ٠

كان تارةً يقفز على قدمٍ و تارةً على القدم الأخرى ، كان يتأوّه ٠

اقترب صاحب الكلب من الحفرة ، و قد أثار اهتمامه هذه الضجة و هذه الحركات المضطربة لكلبه ، و وضع قدمه فيها و ياهو !
ثم احترق بدوره ٠٠٠ لقد اكتشف النار و اكتشف إحدى مظاهر قوتها ٠

هذا مارواه لي المجذّفون الياكوما ٠
مجذوفوك هم عبارة عن دمامل متورمة من الخداع يا بيسيبنغي ، و بفضل ليلينغو وحده - أنا أقول لك - عرف الناس النار ، و بَنوا الأرض و كدّسوا الجبال و رسموا انحدار الأنهار ٠
لكن إيبو القمر هو من خلق أوّل رجلٍ و أوّل إمرأة ٠٠٠
أنا أعلم الكثير من الأمور يا بيسيبنغي و الكثير من الأشياء التي لا ينبغي أن تعرفها لأنّك تعلم الكثير من الأشياء بحيث يجب ألاّ يعرفها رجلٌ بسنّك ٠
لم يتجاهل بيسيبنغي التحدّي و الكلام ليس فعلاً ، كان يكتفي بمراقبة حركات باتوالا دون أن يكترث كثيراً بضحك والدة باتوالا الساخرة ٠

- هل تعلم أن إيبو القمر هو عدوٌّ لولو الشمس ؟ تابع باتوالا كلامه ، أليس كذلك !

و منذ زمنٍ طويلٍ كانت لولو الشمس الرجل و المرأة معاً كانت تعيش بذكاءٍ مع إيبو القمر ٠

في ذلك العصر ، كان لكلٍّ من إيبو و لولو أمٌ خاصةٌ بهما، و كان كلّ واحدٍ منهما يحبّ والدته بشكلٍ لا يمكن وصفه .. كانت والدة ايبو تشعر بالبرد القارس ، بينما والدة لولو كانت تشعر بالحر الشديد ، فتكفّلت الشمس بالاهتمام بأكيرا والدة إيبو ، بينما وافق إيبو على العناية بوالدة لولو ٠

كان هذا التبادل مشؤوماً ، ذلك أنّ العجوز أكيرا و التي اعتادت على البرودة ماتت من شدة الحرارة ، و والدة لولو ماتت من شدة البرودة ٠

و منذ ذلك الوقت بدأ الحقد يفصل بين لولو و إيبو ، و لهذا السبب و على الرغم من سلطة إيبو التي تتجاوز سلطة لولو فما إن يحلّ الغسق حتى تجبره على الرحيل حيث يختبئ خلفها عندما تحرق المناطق الشاسعة ٠

ألم تكن تعرف هذا يا بيسيبنغي ؟ ألا تعرف بأنّ النجوم التي تراها في الأعالي تتلألأ و هي كقطعٍ لا متناهيةٍ من فئة العشرة قروش و ترمش كالعيون ! أتدري بأنّ هذه النجوم ليست إلا الحفر التي تمتلئ بمياه المطر ؟

منتقلاً من فكرةٍ لأخرى ، أضاف :

– قديماً ، كانت النساء اللاتي يرغبن بأن يكنَّ أمّهاتٍ و كلّ ما كنّ يطمحن أن يكن كذلك ، لا يتوجب عليهنّ أن يأكلنَ لحم الماعز و لا لحم السلحفاة ، كنّا نعرف في ذلك الحين أنّ النساء اللواتي يأكلنَ لحم الماعز سوف يُصبْنَ بالعقم ، بينما من تأكل لحم السلحفاة سوف تنجب أطفالاً يشيخون مبكراً و يمشون ببطءٍ كالسلاحف التي تتخذ من

ظهرها منزلاً ، كنا نعرف بأنه كان باستطاعة شيوخنا[1] أن يُحفِّزوا هطول المطر حسب رغبتهم ، لكنهم لا يفعلون ذلك إلاّ في الوقت المناسب و عند اقتراب موسم البذار ٠

فعندما يهلّ قمر موسم البذار كانوا ينثرون الملح بقبضة يدهم على موقد جمرٍ كبير، و بشكلٍ عام لم يكن سقوط المطر يتأخر و ذلك بسبب أن الملح يجلب المطر – الذي يحبه ٠

كانوا يعلّموننا بأنّ روحاً خبيثةً تسكن في بطن البشر تسمى دندورو ، و عندما يشعر الإنسان بألمٍ في بطنه يكون ذلك بسبب دندورو هذا الذي يوجعه و يوجعنا ٠

ونغاكورا ، و نغاكورا الذي نقسم به ما استطعنا ، هل تعرف نغاكورا ؟ لديه إمرأةٌ شجاعة ، و لديه أولادٌ يزيد عددهم عن عدد أعشاب الدغل ، أكبرهم نادولو وناغودجو و هما يساعدان والدهما في إدارة قُراه ٠

ليس لدى عائلة نغاكورا تجاه البشر إلاّ العطف ، فهي تستجيب بشكلٍ عاديّ لمطالبهم رغم ذلك بشرط أن يقدموا لها الهدايا على اختلاف أنواعها ٠

[1] هنا بمعنى كبار السن ٠ المترجمة ٠

لم يكن كوليكومبو ليتحمل ذلك للأسف ، و التعساء من البشر كانوا يدفعون ثمن القدور المكسورة خلال الخلافات التي كانت تفصل بين كوليكومبو و نغاكورا ، هذا الذي اكتسب عادةً تثير الغضب و ذلك بقتل مؤيدي كولكومبو، وكولكومبو كان يقتل أصدقاء نغاكورا ٠

ودادرا ، دادرا ، الشقيق المتحرك للنجوم المغروسة في قبّة السماء و الذي يشبههم ! دادرا الذي نراه يتسلل بين السماء و الأرض خلال الليالي الدافئة و الجميلة ! دادرا الذي يختفي و لا نعلم أين و هو يدوّي كرصاصة البندقية ٠ هل استطعت أن تعرف من يكون دادرا ؟ كلا ، أليس كذلك ؟

يجوز أن تعرف ذلك إذا تقدّم بك العمر و أصبح شعرك أبيض ، و هذا ما أشكّ به لأنّك لن تعيش حتى تهرم عظامك ٠

– و كيف لك أن تعرف هذا ؟ فعندما نرغب بأن نعيش خلال الفصول المتعددة للمطر، وكذلك الفصول المتعددة للقحط ، يجب علينا ألاّ نعشق بإفراطٍ نساء جيراننا ، و كذلك يجب ألاّ تطاردنا نساء الجيران كثيراً .

ثم ، انظر ٠٠٠ أفضّل أن ألزم الصمت ، أشعر بأنني تكلّمت أكثر مما ينبغي .. في الواقع هذا يصبّ في مصلحتك ، لكنك لن تستطيع أن تفهم ٠٠٠

في هذا المساء أنا ثمِلٌ جدّاً ٠٠٠ ثمل كأبيض ٠٠٠ و ما أقوله يتجاوز ما أرغب قوله ٠

غير أنّه يسرّني و قبل أن أذهب لآخذ قسطاً من الراحة أن أقصّ على مسامعك أسطورة كوليكومبو و اسمه الحقيقي تروليه ٠

كوليكومبو كان قصيراً جداً و صغيراً جداً لدرجة يقال فيها بأنّه غير مرئيّ ، و بعضهم ادّعوا – و كانوا من المساكين المجانين – بأنّه لا يوجد إلاّ في الخيال ٠

رفع كتفيه بازدراءٍ و بصق ثم تابع كلامه :

– و مع ذلك ، فهو موجود ، و ليس كذباً ، إن لم يكن موجوداً فلماذا يطلقون لقب كوليكومبو على كل ذي قامةٍ قصيرة ؟

جسمه لا يختلف في شيءٍ عن جسم أيّ إنسانٍ و ليس عليه وبرٌ ، مَثَلَه مِثلَ بيضة الديك الفرعوني أو تمساح الكيمان ، وعليه شعرٌ كثيف يزيّن جمجمته ، قوّته خارقة ٠

و حتى أعطيك فكرةً عنها ، أفترض أنّ كلّ الناس و كلّ الحيوانات تتحد ضدّه ٠ فعندها سوف يبعثرهم بسهولة أكثر من تلك التي يحتاجها ليفرّق النمل المتهالك ٠

احفظ هذا الشيء من أجل أن تتعلم ، إذا التقيت به مرّة يجب عليك أن تتجنب السلام عليه بيدك ، هذا إذا لم تكن لديك الرغبة بفقدان إحدى أصابعك و بالأخصّ الإبهام ٠

ثم أخذ يقهقه بقوّةٍ كالأبله ، فقد اجتاحت عقله فكرة فاحشة ٠

– كوليكومبو ، تابع قوله ، ملازمٌ لبيته في فصل المطر ، فهو يطيب له ملازمة بيته في أعماقِ الكهوف و التي تكون مداخلها المليئة بالظلال مفتوحةً على منحدرات الكثير من الجبال ٠

و في عرينه يكون برفقة امرأتين ، ماكارامبا و مادانغيه و كذلك أولاده ، و هم بعدد أطفال البشر ، و يعيش أكثر نوعٍ من الحياة المتسامحة و التي لا همّ لها سوى تناول أطايب الطعام ، لحم الفيل و الذرة البيضاء و العسل – أفضل القطع و ألذّ الفاكهة – فهو لا يتقبّل أيّ نوعٍ آخر من الطعام ٠

لكن عندما يأتي الفصل الجاف و لاحقاً الترحال ، لا يستطيع كوليكومبو أن يبقى في مكانه كما يفعل هذا الفظّ بيسيبنغي ، فهو يأخذ رماح صيده القصيرة و الطويلة و الثقيلة و يتوشح بخرجٍ من جلد الماعز و يحزم وسطه

بمجموعةٍ من الأعشاب العفنة والأوراق التي تكون له بمثابة وزرة – ثم ينطلق للمغامرة ٠

و من الآن فصاعداً كلّ الطرقات تكون مناسبةً له و كلّها تنتمي له ٠

كان يتنقل بين الهضاب الصخرية التي تحرقها الشمس و يتسلق الجبال الجرداء و يضرب السهول التي أتلفتها الشمس ، و هو دائماً جاهزٌ ليقوم بأعمالٍ ماكرة و مريعة ، كان يأتي و يذهب و هو يتتأفف و يتضجر و ينفخ - يأتي و يذهب - فليس من يصادفه يكون ذا حظٍ جيد ، و ذلك لأنّه يتعلق بخطوات أحدٍ ما و يبعده عن الطرقات المأهولة بالمارّة و الطرقات الجبلية الضّيقة التي تؤدي إلى قُرىً مأهولة بالبشر ، و لكي يجعله يتوه خلال أيامٍ و أيام في الدغل حتى يتمكّن منه ٠

و يجب على ضحيته أن تعتبر نفسها أيضاً من أحبّاء نغاكورا ، فيما لو وضعت الصدفة في طريقها الفاكهة البريّة لكي يشبع ، و المستنقعات لكي يروي عطشه ، بدلاً من أن يكون لقمةً سائغةً لأشبال بامارا الأسد أو أبناء النمر مورو ٠

هل تريد أن أكشف لك عملاً آخر من أعماله الماكرة ؟

اسمع المزيد : في الفصل الجاف يوجد القليل من الناس في الطرقات ٠ وكنّا نصيد في الفصل الجاف و كان اللحم

الأحمر و الدامي يعادل كلّ مزروعات العالم ، لنفترض بأننا في الفصل الجاف ، وأن الشمس في أعلى نقطة في السماء ، فها هو شخصٌ ما على الطريق ، إنه كوليكومبو الذي يلبد تحت صخرة أو خلف شجرة - جاءت المصيبة - سيمر و يمر ، كلا ، و من دون أيّ تحريض يضربه كوليكومبو على رأسه بهراوةٍ كفيلةٍ بطرح ثورٍ على الأرض ٠

كانت العيون مغشيّة بفضل آلاف الأنوار المبهمة والآذان مليئةً بطنين أسراب النحل اللامرئية ، و الرأس في النار و الحلق جافٌ ٠ سقطت ضحيته لاهثةً و يداها نحو الأمام و كأنّها كتلة واحدةٌ .

و كما أنه لا يوجد وقت لإضاعته ، وضع كولكومبو زبونه في كيس ثم دسه في خرجه الذي لا ينفصل عنه مطلقاً مستفيداً بذلك من عدم حركة الرجل ، ثم أخذ يجري بين المزروعات بخطىً كبيرة ٠ و هناك ، أيقظ النائم و اعتنى به و أنعشه و سأله ما إن شعر بأنه يسمعه :

– هل تقبل بأن تعمل في مزروعاتي ؟ إن كان جوابك نعم فستكون ثروتك قد أُعِدَّت و سأطعمك كثيراً و سيكون لك نساءٌ و

خدمٌ و دجاجٌ و ماعزٌ و بيرةٌ من الذرة البيضاء المزروعة ، سوف لن تشتكي من شيء لأنني سألبّي طلباتك ٠

لكن إذا قبلت اقتراحي ، و هذا ما أرجوه – و طبعاً هذا الشيء أنت الذي تقرره – فيجب أن تجهّز نفسك بأن لا ترى قريتك و لا أقرباءك ٠

هل تقبل ذلك ؟ أجب : نعم أم لا ؟

و على الأغلب ، و رغم العرض المغري لكوليكومبو ، فقد رفض ، و من جديد – طراخ !

تلقّى المسكين ضربةً جديدةً من الهراوة على رأسه جعلته يهوي على الأرض ، و من جديد حزمه معذّبه و قاده إلى المكان الذي فقد فيه وعيه ٠

عندما استعاد صديقنا وعيه ، كان عنقه يؤلمه ورأسه كان ثقيلاً و قدماه رخوتان ، كان يشعر بأنّ جسده ميّتٌ ومرهق ولا يستطيع النهوض ، وكان يبحث عن لحظةٍ لكي يتذكر لماذا حصل معه ذلك ؟

ابحثْ عما تريد أيّها الرجل الطيّب ، إنّ كوليكومبو يفعل ما يريد فعله ٠

مهما حدث ، تستطيع كمخبولٍ على الأقل بسبب الحمّى التي تفترسك الآن أن تنظر حولك ، و سينتهي بك

المطاف رغم ذلك لكي تلاحظ كولكومبو ، ذا الآذان المرتقبة و العيون المتيقّظة ، يسمع و يرى و ينتظر٠ لا نعرف من على الطريق ٠٠٠

ما رأيك بهذه القصة يا بيسيبنغي ؟

– أراها رائعةً يا باتوالا ! لكن ماذا تريد مني أن أقول ؟ ها ! بالنسبة لي إن كولكومبو و ضربة الشمس هما شخص واحد ٠

أخذ يضحك بلطفٍ بعد أن أطلق هذه الصفة ، كان يعرف هو أيضاً قصصاً جميلة ، و كانت لديه الرغبة بأن يسرد قصّةً تكشف عن أصل مرض النوم ٠

لكنّ هذه القصة كانت طويلة جداً و قد يقصّها مرّة أخرى ٠

و مع ذلك ، كان دجوما يتذمّر منذ لحظة ، من جهة شفتيه المقلوبتين بشتائمَ صامتة بلغة الكلاب ، ثم هجم فجأة على الظلام و بقي هكذا واقفاً .

ظهرت مجموعةٌ من الرجال فجأةً من الظلمات ، لقد كانوا جماعة نغابو من ياكيدجي وكانوا تائهين في الليل .. يا له من حظ ! فوجود هؤلاء الضيوف غير المتوقعين كان يحرر بيسيبنغي من قلقه ٠ جمع على عجلٍ كومةً من الأوراق و تمدد عليها في الحال ، قد لا يقتله في هذه

الليلة ! و بما أنّه سقط من النعاس ، كان من الأفضل أن يستفيد من المهلة التي منحه إياها القدر ، لم يفكر بشيءٍ و عيناه مغلقتان :

غداً في الصباح رباح ٠

ثم تأرجح ببطءٍ ، كانوا يثرثرون بجانبه ، ثم أصبح تنفسه متساوياّ و قوياّ٠

كان نائماً ٠٠٠

١١

كانت طرقات الدغل مبللةً و نديّةً جداً منذ الصباح ؛ فكانت تنبعث رائحة العطور النديّة و الرخوة و الحشائش تهتز ، وكان يُسمَعُ صوت حفيف أوراق الشجر التي يلويها النسيم ، و كان

هناك رذاذ خفيف و بعض الأبخرة – و ينبعث من التلال و الوديان الصغيرة دخان و ضجيجٌ حي و قرع طبولٍ و نداءات وصراخ و حركات ، كلّ هذا كان ينبعث نحو الشمس الشاحبة .
كان هناك حماسٌ في الأعلى على الشجر ، هناك حيث تزقزق العصافير ! و تحوم في الأعلى العقبان ! هناك في الأعلى حيث يبدو لازورد السماء غير ملوّنٍ بفضل قوّة الضوء !
يا له من نهارٍ جميل ! فالدغلُ غوسو كلّه سوف يحترق ! إيهيه ، فالفيلة ذاتَ الأحشاء المليئة بالكروش المنتفخة ليس لديها الوقت الكافي للنهيم . وأنتم يا معشر البينيغيه و الفونغبا ، لقد أحسنتم التصرف بعدم علف خنازيركم ذات الخطوم النهمة !
جاء دورنا الآن يا ظباء ! و دورنا يا شياهم[1] ! تدحرجوا كالكرات و أوقفوا أشواككم يا شياهم ! فالنار ستعمل ما تريد .
أيّتها الثيران المتوحشة ، اهربي و أنتِ تخورين بأجمل ما لديكِ من أصوات. و كمجموعاتٍ غير منظمة و ذيولكِ نحو اليمين ، اهجمي و اقفزي ، اهربي و بطونكِ على الأرض فالخوف يندفع من أحشائكِ بشكلٍ أسرع من السهم و أسرع من الريح ، و كأنكِ سمعتِ خلفكِ فجأة زئير بامارا الأسد .
و أنتم أيّها الأرانب التي نسميكِ درامباس ، أيضاً فرّي بسرعة ! و أنتِ مذعورةٌ من خيال آذانكِ الطويلة و من كلّ شيء ، و ليس لديكِ ثقةٌ إلاّ بسرعة خط هربكِ المتعرج ، ولّي الأدبار بسرعةٍ ، ولّي الأدبار بسرعة . اخشي ذلك الشعب المتوحش ، إخوة الكلب دجوما، ولا تختبئي في أخاديد الأراضي السمراء كسُمرة أجسادكِ ، فلتسقط الخُدَع ! فحتّى جحوركِ ليست آمنة ، امشي بخطٍ مستقيم ، بعيداً عن كلّ الدخان الأسود الذي يعلن بأن النار ستلتهم الدغل ، يجب عليكِ الهرب ، الهرب ، الهرب !...

[1] مفرده شيهم و هو حيوان قارض يعيش في أفريقيا . المترجمة

يا له من يوم جميل ! يا له من يوم جميل !
فإثارة الطرِّيدة لدفعها نحو النار ًليست مثمرةً ! بالفعل عندما نُحصِي الحيوانات في هذه الحالة ، لا نجد زرافاتٍ . فهذه الحيوانات ذات القوائم والأعناق الطويلة تسيطر على أطول الأعشاب و هي اعتادت على العيش هناك ، بعيداً جداً ما بين واهم و كابو و ما بين كابو و نديليه ، أي ما بين المسافات الشاسعة الغنية بالنباتات الشائكة و التي تشكّل على ما يبدو غذاءها .
أها ! يا لتلك الزرافات ذات القامات الطويلة المبرقشة .
و مما لا نراه كذلك حيوانات الكركدنٍّ الضخمة ذات الخطم المثقل بقرنين غير متماثلين .
الكركدن حيوان عيناه صغيرتان محمّرتان من شدة قسوتهما فلا يرى بهما جيداً ، رقبته قبيحة ، و كثيرة العضل و متغضنة ، ياياياي !
ما إن يراك حتى يتجه مباشرةً نحوك ولا شيء يوقف اندفاعه .
لا أدغال ولا مستنقعات ولا أشجار ولا عرائش .
فهو يحطّم و يسحق و يبقر و يكسر كلّ ما يمرّ بطريقه ، فالويل لمن يطارده ، الويل له !
والويل لمن يتيه في الأماكن التي يرعى فيها بالتناوب و يجترّ ! فليكن هذا الشخص على أهبة الإستعداد هذا الشخص ، فليتوسل للعناية الكبيرة لنغاكورا ! و إن حصل مصادفةً أن وقع على روث الكركدن الذي لا يزال يحترق و على مرأىً من ضخامتها ، أوه ، فعليه ألاّ يصرخ خصوصاً و لا يقول ايش ! لأنها تُعتَبر كلمةً نابيةً ، عندئذٍ يأتي الكركدن و هو ينفخ ، يزمجر و يتأفف و يغضب و بطنه منفوخ ، يطبّل بكافة الأصوات القوية التي يصدرها صوت الهضم ، فهو يدفعه و يقلبه و ينام عليه ، يقرقع

كالخيزران اليابس و ينهض ليدعسه بقوائمه و لا يتركه – باتالا – باتالا[1]
حتى تكون الجثة المشوّهة مضرجةً بالدم و بقدوم الليل يتقاسم أبناء آوى ما بقي منها ٠
و كذلك يُفضَّل في مناسباتٍ مشابهةٍ أن يسدَّ أنفه و يبصق من القرف و يقول : أوف ما هذه الرائحة النتنة !
لأنه و ما إن تُلفَظ هذه الكلمات الوقحة حتى يأتي الكركدن و هو خَجِل ثم ينسحب بسرعةٍ قصوى ٠٠٠
ما من زرافات ، و ما من كركدن ، لا يهم ! نصطاد ما نجد ، فالصيد هو لعبة الأقوياء وهو صراع الإنسان ضد الحيوان ، وصراع البراعة ضد الوحشية ، وهو يحضّر للحرب ، و يتأكد من براعته وشجاعته ومن حيويته وجلده ٠
عينٌ ثاقبة وقدمٌ رشيقة و قوامٌ ناعمٌ و قوي غير متعب ولا يضيق نفسه ولا يتوقف ولا يلهث يوجب القدرة على الجري لفترةٍ طويلةٍ خلف الحيوان الذي تم جرحه ٠
و بمساعدة الكلاب فإنّه من السهولة التقاط الأرانب و الشياهم و القنافذ في شبكات الصيد التي تنصبها الباندا ، فحلقات الشبكات المعدنية تُعتَبر بالنسبة لهم أفخاخاً لا تقاوم ٠
لكن إن اقتضت الضرورة و التقطنا بعض الأنواع من الظّباء الصغيرة ، فإنّه من المستحيل أن نقوم بذلك لاصطياد الظباء طويلة القامة كالحصان و الخنزير ذي القرنين و الخنزير البرّي و الفيلة ٠ يجب أن نُتعِبَ الأوائل و نرهقها و ننهكها و نحصرها و نجعلها تسقط في حفر أُعِدّت لها بشكل مقصود ، و في هذه الحالة و عندما يكون الثور البرّي محاصراً يكون أكثر خطورة

---

[1] كلمة سنسكريتية تطلق على سبع طبقات تحت الأرض و فوق جهنم (في علم الكون الهندي) ٠المنهل الوسيط فرنسي عربي ٠

. عندما يشم رائحة الموت التي تحل شيئاً فشيئاً بدل رائحة الدم النازف من جرحه ، يقوم بمجابهة غريمه و رأسه نحو الأسفل و يبدأ ب..
وهكذا كان بيسيبنغي و باتوالا يتحادثان ، و كان أحدهما خلف الآخر و يمشيان بسلامٍ ، و كان دجوما يتبعهما و أذنه متدليةٌ نحو الأسفل .
وفي كلّ لحظةٍ كانت قبائل مبيس و نغابو و داكبا تتسلّح بالرماح القصيرة و بالسهام و بسكاكين الرمي .
يضع القائد على رأسه ريشاً و جسده كالخشب الأحمر المدهون بزيت الخروع – فيوم الصيد هو يوم عيد – فالناس يذهبون إليه و هم يغنّون ، و يصطحب غالبيتهم معهم كلاباً حمراً تشبه دجوما ، و هي شرسةٌ مثله .
كان الجوّ جميلاً ، و كانت نسائم الهواء العليلة تهبّ من المكان الذي تشرق منه الشمس إلى المكان الذي تغرب فيه و كانت تهوي في الدغل . و كان لدى لولو الشمس متّسع من المكان للتجول قبل أن تصل إلى وسط السماء . وكانت أصوات الطبل تتعالى و تتصاعد نحو القرى الزرق المستقرة . أما مرتفعات جبل كاغا بيغا فلا تظهر من الأفق إلاّ كنقطةٍ صغيرةٍ ، لقد اجتزناها كلّها في الصباح .
يوم جميل ...
تفرّق الجمع عند تقاطع ممرّين جبليين ، أحدهما يقود إلى قرية سومانا و الآخر إلى قرى نغابو و الواقعة تحت سيطرة ياكيدجي ، و هو تابعٌ قديم لسينوسو .
كلّ واحدٍ كان يلتحق بوظيفته لكي يُنجِحَ في زمنٍ قياسي المهمة التي أوكلت إليه .

كأن يكون مراقباً أو مطارداً للفريسة أو ضارماً للنار٠ و هؤلاء الذين يصيدون و يصيدون فعلاً هؤلاء من يقتلون تكون أعدادهم قليلة ٠

إذاً ، بعضهم يفرُّ إلى النهر دانغوا الذي يصب في غوتيا ليندمج في كيلمبي ، و هناك يجب إطلاق النار٠ و بعضهم يتوقف بجانب النهر و في قرية القائد داكبا – بيرا غاودا على ضفاف نهر ماسوانغا ٠ و بعضهم في النهاية يذهب إلى مكان الانتخابات ٠ و هو مكان يمتد بين نهر غوبادجيا و نهر غوبو ، و يشكّل باتوالا و بيسيبنغي جزءاً من هذه القبيلة الأخيرة ٠

فُتِحَت المؤونة و تناوبت لفائف السجائر على الأفواه ، بينما تعارف دجوما و إخوته بطريقتهم القذرة على بعضهم البعض تعارفاًً واسعاً ، بعد ذلك تم تناول الطعام ، وبعده تمّ الحديث عن أشياء و أشياء ، بحيث تكون الذقون مرتكزة على الركب و الكعاب ملتصقة بالمؤخرات ٠

– يزعم - كان باتوالا يقول - أن بامارا الأسد و مورو النمر يحبّان الصيد مع أفراد عائلتهما ، صحيح أن بامارا النمر يطارد غالباً برفقة أنثاه الحيوانات التي يحتاجها لكي يتغذّى عليها ، و صحيح أيضا أن الأسود عندما تستلقي اللبوة لكي تُرضِع أشبالها ، يوافق الذكر على إطعام أعضاء العائلة ٠

لكن هذه الحياة العائلية لا تدوم طويلا ً و ما إن تصبح الأشبال قويةً و تتمكن من أن تدبّر أمورها بنفسها حتى يقوم الأب بامارا مع الأم بإفهامها كيف تتصرف بحكمة بتركها تتصرف بمفردها ٠

إنّ الأشبال الفتيّة في الواقع مثلها مثل الشباب الفتيان لا تُطاق ، فهي تتوق لفعل ما لا يستطيع فعله ، و على ما يبدو لا يمكن إشباع جوعها مهما يكن ، و لكن ، من يريد أن يأكل يجب أن يعمل ، دوهوت ٠٠٠ دوت – دوت ٠ يقوم باماراا الأب بالزئير وهو يدوِّر عينيه و يجعِّد عرفه القصير و يكشِّر عن أنيابه ويضرب في طول الأرض وعرضها وهو يضرب جنبيه بذيله الغاضب ٠

هناك أسطورةٌ أخرى أيضاً و هي عنيدة أكثر من الأولى ، البعض يعتقد أنّ الوحوش تصرخ عندما تكون في حالة ترقب ، يال الجنون ! إنّه كلام بلا تفكير ! لنرَ !!

فالصياد التي يقتفي أثر الظبي ، أفلا يستطيع أن يخفي عنه اقترابه ؟

لماذا يتصرف باماراا بطريقةٍ مختلفة ؟

لو كان زأر فهل ستكون الحيوانات التي يريد أن يفاجئها على علمٍ بذلك ؟ لو علمت لولّت الأدبار على الفور !

كذلك فإن باماراا لا يزأر إلا من أجل أن يعبّر عن فرحته عندما ينتزع أو عندما يقطِّع فريسته التي كان يشتهيها إرباً ، دوهوت !٠٠٠ دوت – دوت !٠٠٠ كلّ شيءٍ يسير على ما يرام ، إن جوعي قد هدأ أو لن يتأخر بأن يكون كذلك ، أشعر بالسعادة ، عندي رغبةٌ بأن ألعب بمتابعة ظلّي في الشمس ٠

إن زئيري سوف يرعب الثيران البريّة و ظباء الجوار ، دوهوت !٠٠٠

إن الوحوش هي وحوش !

منذ الوقت الذي عرفت فيه صوتي ، واعتادت على سماعه ، أفلا تدرك بأنني عندما أزأر فأنا أقلّ خوفاً ؟

هناك !٠٠٠ يكون بطني المحترم ممتلئاً ، أنا قويّ و أريد أن أتسلّى ، لنصعد إلى قمّة هذا الجبل ، دوهوت ! ٠٠ آه ! كم سأضحك من هذا المكان حيث أكون ، سأكتشف المنطقة برمتها ، و ماذا أرى ؟

أرى من بعيدٍ و من خلال السهول هروب قطعان الثيران البريّة ؛ لأنها عندما تسمع زئيري تهرب ٠ هؤلاء الأبرياء ! يجب أن أضحك ! دوهوت ! دوت – دوت ! و الآن ، لنبحث عن مكانٍ يكون ممكناً فيه الهضم بسلام و في مكان رطب ٠

– و الناس التي تؤكّد بأنّ مبالا الفيل لا ينقضُّ على الإنسان ، لكنّه على العكس يهرب ما إن يسمع أصوات البنادق ، ألا تعتقد بأنّ أولئك هم مجانين مثلهم مثل كوسيسنديه يا باتوالا ؟ سأل بيسيبنغي ٠

و مع ذلك ٠٠٠ و منذ عدة فصولٍ مطريةٍ كنت أسكن في كيمو ، كان يعيش في ذلك الوقت صيادٌ ضخمٌ أبيض ، كان لا يصيد إلاّ الفيلة ، كان يُدعَى كوكلان ٠

كان كوكلان أحد هؤلاء التجّار الذين لا نرى منهم إلا القليل ، كانت قامته طويلة ، و كانت عيناه تلتمعان في وجهه كما تلمع الشمس في السماء ٠ كان شعره طويلاً متدلّياً على رقبته ولحيته الطويلة ٠ كان قوياً لدرجة أنه يستطيع القضاء على ثورٍ بريّ بضربةٍ واحدةٍ .

كنّا نحبه كثيراً فقد كان يعيش مثلنا نحن السود الطيبون ، و كان يأكل من طعامنا ، و كان سريره مثل سريرنا فقد كان يفترش الأرض مثلنا على حصيرةٍ كي ينام في الليل ٠ وفي الصباح قيل له أنّ قطيعاً من الفيلة قد أتلف كل مزروعات القرية التي لا تبعد كثيراً عن وادا ، وتقع على أطراف واهمبيليه الغنيّة بتماسيح الكيمان ٠

لم يأخذ إلاّ بندقيتين ، عَهِد بواحدةٍ منهما إلى أفضل مراقبيه و لقّم بندقيته بطلقتين ثم إلى الأمام سر !

كانت الفرصة سانحةً له لدرجة أنّه في نفس اليوم و قبل غروب الشمس بقليل اقتفى الآثار الطريّة و تَبِعها ٠

يا لهذا الضجيج ! ما من شكٍّ ، فالفيلة كانت هناك !

تدافعات ، أغصان مكسورة ، و نهيم الفيلة ، كان يسمع صوت الزمجرة المتواصلة لتناولها للطعام ٠ كانت تمرغ أنفسها في الوحل و تشرب الماء ، إذ إنّها هربت من أشعة الشمس و جاءت للاستقرار بالقرب من المستنقع ٠

زحف الرجل الأبيض برفقة مقتفي الأثر ببطء ، ببطء ، فجأةً ، رأى واحداً منها مستنداً إلى شجرة ، نظر حوله ثم بقره في بطنه دون شكّ ، ثم أطلق عليه النار ٠

ها ! ثمّ سقط الحيوان الضخم مضرّجاً بدمائه٠

نعيش سريعاً لحظاتٍ مشابهةً لهذه اللحظات ٠ فإذا لم يقتلك الموت فوراً فلن تشعر بالخطر الماضي إلاّ بعد ردة فعل ٠

ابتعد الرجل الأبيض قليلاً لكي يتجنّب هذا الحيوان الضخم ، سار في طريق الحقل واضعاً بندقيته على كتفه من جديدٍ ثم ضغط على الزناد ٠٠٠ تاك ! لم يُصِب الهدف٠

ماذا يفعل ؟ أين مقتفي أثره ؟ هل اختفى و هو يحمل بندقيته الثانية البديلة ! هل هرب ؟ مستحيل ! لم يعد أمامه إلاّ أن ينتظر الموت ! فهو قادم ، أين الموت ؟

إنه هنا – في هاتين العينين الصغيرتين الحادتين ، في هذا الخرطوم المتوعِّد الذي يبثّ الهواء في كلّ الاتجاهات ، و في هاتين الأذنين المفتوحتين كورقة شجرة النخيل ، و في هذا النهيم الحاد ، إنه هنا ، إنه ٠٠٠

ماذا حصل بعد ذلك ؟ لم نكن لنعرف بالضبط ما الذي حدث و ذلك لعدم وجود شخصٍ هناك ٠ بعضهم يدّعي بأنّ الفيل قد قذف الصياد الأبيض المسكين في الهواء بعد أن بقره بعدة ضرباتٍ من رمحه القصير ، تاركاً إياه دون حِراك على الأرض و بطنه مثقوبٌ بضربة دفاعٍ من غريمه ، و البعض الآخر ٠٠٠ يقول بأنّ الرجل الأبيض ذا الشعر الطويل و عندما استعاد وعيه ، كان بالتأكيد وحيداً و كان يشعر بوهنٍ شديد ، نعم ! وهنٍ شديد ٠٠٠

لقد جرّ نفسه بصعوبة حتى وصل إلى النهر و غسل فيه جرحه المخيف ، كانت أمعاؤه تتدلى من بطنه ، ثم أعادها إلى الداخل ، و بعد ذلك ، و بعد أن هبط الليل كتب بعض الإشارات على الورقة ٠٠٠

وفيما بعد ، فهمنا ومن خلال البيض المتواجدين هناك ماذا تعني تلك الإشارات :

سوف لن أرى مطلقاً كيمو ٠

كان مخطئاً ... لقد رأى كيمو مجدداً ، فقد اصطحبوه إليه على عجل ، لم يكن يبدو عليه أنّه عانى كثيراً ، لكن وجهه كان شاحباً جداً ، و كان جسده يشتعل و كأنه جمر ٠

كان منخراه مضمومين ، و شفتاه أيضاً و بلا لونٍ دموي ٠

لم يكن يبدو عليه التعب كثيراً و لم يكن ليشتكي ، وضعوه على الفور فوق الفراش و وضعوا الفراش في جذعية[1] وأنزلوها إلى نهر البانغي ليلاً ليقطع بذلك موجات الباكوندو ، و الذي يكون خطيراً جداً خلال موسم الفيضانات ٠٠٠

حاول عبثاً أطباء بانغي علاجه من خلال الاستعانة بالسحر ، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء ، لقد سبق و أن تعفّن بطن دوندورو ٠ كان يصرخ ، و الآن الصياد الأبيض كان يصرخ ، و بطنه منفوخ و يشبه خرجاً مملوءاً بالمؤونة ٠ و في كلّ ليلةٍ كان السحرة - و يطلق على الواحد منهم" أبونا " يقومون بالسهر عليه و هم يرتّلون بعض التعويذات التي تطرد المصير السيئ ٠

[1] زورق يصنع بتجويف شجرة ٠

و في وقتٍ متأخّر كانت يد كولكومبو قد توقفت تماماً ، لقد مات في الواقع بعد ثمانية أيام من وصوله إلى بانغي ٠٠٠

كانت السماء تشعّ في وسط السماء ، و أُعلِن الخبر من خلال الشحارير المعدنية ٠ و من الأفق عديم اللون عصفت ثلاث هبّات من الهواء الاعتيادية و التي تهبّ في مثل هذا الوقت من النهار ، و هي تدخل في زوبعاتٍ كبيرة ، و تحمل معها كلّ الأوساخ و الأوراق الميّتة و الغبار ٠

لقد هبّت هذه الريح من مكان شروق الشمس لتذهب و تزول في مكان غيابها ، و هكذا عادت في الوقت الراهن من هذه النقطة الأخيرة بشكل نسمةٍ عليلة ٠

عندئذٍ و من اليمين إلى اليسار تدوّي الأصوات من الوديان الصغيرة و المرتفعات و من المستنقعات و الأبواق و من الأوليفان و الطبول و كلها تثير عاصفةً من الضجيج المفرط و المتوحش ٠

ياها !

الإشارة ! الإشارة ! بدأ الصيد !

هناك و على أطراف نهر دانغوا كان الدخان يتصاعد ، لكن هل هو بالفعل دخان ؟ ٠٠٠

نعم ، نعم !

كان خفيفاًً للوهلة الأولى ، لأنه لا يدرك بالحواس ، لكن مقذوفه المائل للسواد كان يشتدّ في السماء ، ثم يتألّق ٠

كان من الممكن صدم حديد الرماح القصيرة بشفرات سكاكين الرمي ٠

ياها !

١٢

ياها !٠٠٠ الإشارة ، إنّها الإشارة ! لقد أُضرِمَت النيران ، و النيران المتعددة و القاسية التي تسخّن و تحرق و تثير الطريدة ، تقتل الأفاعي و ترعب الوحوش و تقضي على غرور الأعشاب و الأشجار ٠ و النيران التي تُصلِح الأراضي المناسبة لمواسم البذار القادمة و هي تمرّ بها تجعلها صالحةً للزراعة أكثر ٠

آه ! ماذا ستقول النار ؟ من سيمدح كما ينبغي و بكلماتٍ سخيّةٍ قصداً و بحماس ، و من سيمدح هذه الشمس المختزلة والفريدة أحياناً و في أغلب الأحيان لا تحصى مزاياها ، والتي تنير ليلاً و نهاراً رغم المطر و الرياح ؟

يجب التغنّي بوضوحها الثابت و بوجهها المتنوع و بحرارتها التدريجيّة الناعمة و الملحة و التي أحياناً لا تُحتَمَل و أحياناً تختفي .

المجد للنار !

أفلا يغلق ناثر الغبار عينيك ؟ فالنار تستقرّ بالقرب من النائم ، تخرُّ و تحيط به بنعومةٍ و توقعه بشرك حرارتها هكذا و تحرره من كلّ شيء من خلال هذا الموت الصغير و تأخذه نحو بلد الحلم الذي يعود منه في مطلع كلّ فجر ٠

ألم تضنيكم الحمّى ؟ ألم ترتجفوا من البرودة ؟

فالنار تنظم جريان الدم الذي يدور في حبال أيديكم الزرقاء[١] ٠ وهي من تجعلكم تتنفسون ، وهي بفضل مداعبتها المنيرة تدلّك أعضاءكم المتغضنة ، يمكننا الإعتقاد طالما هي ناعمة ، بأنّها تشبه زيتاً جيداً في الواقع وشيئاً فشيئاً تصبح العضلات مرنةً و تستطيع أن تتحرك بحريّةٍ ، ثم تتلاشى الحمى والتعب ، ولن نشعر بالبرد ، والمطر ينهمر في الخارج ٠ وطالما أنّ النار

---

[١] الأوردة

موجودة ، فدخانها كفيل بإبعاد طيران الحشرات المصحوب بالطنين ، وتوهجها يزيل الرطوبة ٠

هل أنت وحيدٌ و حزين ؟ هل أنت بحاجة لأصدقاء ؟ لا تذهب بعيداً جداً ، فهي نِعْمَ الرفيق و الصديق و من يكتم الأسرار ، و كما أنّها تدفِّئ الأعضاء فهي أيضاً تدفِّئ الكبد فهي تحفز على الاعترافات ٠

بقربها ، ومن خلالها ، نقوم بتحضير أطايب الأطباق الساخنة ، فهي تَهَبُ أشياءً كثيرةً مثلها مثل الوجبة اللذيذة ، فهي تلطّف وتسعد وتعزّي ٠ كلّ ما يصدر عنها يحفّز على التنازل ، وهي بصوت طقطقتها اليابسة التي تنمّ عن بهجتها تدعوك للبوح بأسرارك ٠

و من سيمدح أيضاً النار كما يناسبها ؟ وعلى وجه الخصوص من سيغني أغنيتها الجميلة الحمراء وهي تتحول الى حريق – واسع ومفاجئٍ وعظيم بأشكالٍ مختلفة وتُرسِل بألسنة لهبها الجامحة المتفرقة على الدغل و الجبال و تحدِث ضجّةً كبيرةً مرتبكة وثقيلة صادرة عن احتراق الأشجار التي تقضي عليها ؟

ومن سيغني أغنية نيران الدغل ؟ فهي هنا وهناك وهناك أيضاً و بعيدة أكثر من ذلك أيضاً ، فهي لا تبقى في مكانها ، و تلتهم كلّ شيءٍ منعزلٍ في لحظةٍ واحدة ٠

فهي تذهب من عشبٍ لآخر و من خلال قفزاتٍ مفرقعة ، هي تقترب و من يكن صبوراً فسير ذلك قريباً. القليل من الزمن أيضاً و ليس إلاّ القليل – وسنسمع صوت زمجرتها الغاضبة هناك و في كلّ مكانٍ يتصاعد منه الدخان !

لكن ... لكن ! أين تذهب ؟ أليست هي من تمضي باتجاه نهر بونغو وقرية سومانا ؟

هيه ، بوبو ، صديقتي الريح ! يا صديقتي يا مستودع أسراري ، يا صديقتي و بمثابة الأخت، ابسطي النيران على قرية غاودا ! ليكن الرب نغاكورا معنا !...

أها ! ها هي تعود ، كلّ شيء للأفضل ! ها هي النار تعود و الدخان يتفاقم ، و لهواء يعبق بروائح النباتات العطرية . وللمرة الأخيرة هيا لنشحذ الرماح القصيرة والسكاكين ! لقد آن الأوان .

ماذا تقول أصوات الطبول !

ثيرانٌ برّية ... مذعورةٌ من النار ، تعدو ... نحو قرية نيباني... ماذا أيضاً؟

... يوجد ... في هذه القرية... مُطاردو فرائس و مُطلقو نيران... هؤلاء مطلقو النيران... لن يتأخروا في إضرام النار في حصة الدغل و بعنايتهم ...

إياها ، إياها ! إنّ كلام الطبول لهو كلامٌ جيد !

إياها ! كانت تتصاعد الأدخنة السوداء من قرية نيباني !

ياللعقبان ! ··· ياللأدخنة ! لم نعد نرى السماء ، فالعقبان و الأدخنة قد حجبوها و حجبت أيضاً الشمس·لم يعد هناك سوى العقبان و الأدخنة ·

إنّ وفرة العقبان تؤكّد وفرة الطرائد ، انظر ···

هل ثلاثة منهم معاً ينقرون الأرض ؟ ماذا يحملون ؟ عاش الصيد !···

كلّ هذا التعجب يتقاطع مع مجموعةٍ من الصرخات و الضوضاء التي لا يمكن وصفها ·

كانت الحشود تزداد و كلّ القبائل كانت مجتمعة هناك ، و كان بورو وورو رجال باتوالا يمازحان قائدهما ، و كان يَلحَظ أيضاً القادة الثلاثة ياكيدجي الملقب بكامباسير و نيباني و يريتونغو ·

أما بيسيبنغي فقد كان يتسلّى على حساب المجنون كوسييندیه ·

مسكين كوسييندیه ! كيف استطاع أن يجر نفسه إلى نهر غوبو ، و هو بالكاد يقف على رجليه و شريطة أن يرتكز على عصا ·

مسكين كوسيندیه ! إنّ مرض النوم جعله شديد النحول لدرجة أنّ هيئته أصبحت على شكل هيكلٍ عظميٍّ حيّ ، وعلى عنقه النحيل و بشرايين عقدها اللمفاوية المنتفخة تتأرجح جمجمته الكبيرة ·

إنّ المرض الذي جعل شعره قرمزياً جعل عينيه تغوران في محجريهما ، و كانت أعضاؤه كلّها ترتجف و كأنّ قشعريرة الموت قد دبّت فيها ٠

وعلى الرغم من ذلك ، عندما كان يحاول الرقص و يداه على وركيه ، كانت ركبتاه ترتجفان الأولى مقابل الثانية ــ كانت تنطلق عاصفة من الضحك لا يمكن إخمادها ٠

عندئذ توقّف و سحب من خرجه قنفذين بحجم قبضة اليد ، رسمت دائرةً حولهما ، كانت هذه الحيوانات الصغيرة ملتفّةً على نفسها ٠ إنّ المبيس و النغابو الموجودين كانا يدقّان رماحهما القصيرة سرّاً ، الحديد بالحديد و الشفرة بالشفرة وأخذا يرقصان بهدوء و يضربان بهذه المعادن محدثين ضجّةً منظّمة ٠

توندوروتو ، توندوروتو ،

ماكوتارا !

ــ *دانغ ٠٠٠ دانغ ٠٠٠ كلام ٠٠٠ كلام ٠٠٠ كان يدوي حديد الشفرات ،*

ــ *كلام ، كلام ، دانغ ، دانغ*

أنت أيّها القنفذ ، أنت أيُّها القنفذ

ارقص ، ارقص ،

أنت ، أيها القنفذ !

غير أنّ نسمة أثارت نار الدغل و الدخان المتصاعد على نهر غوبو .

رياحٌ و نيرانٍ و دخان ، كان كوسيينديه يسخر من كل ذلك ، وكان منشغلاً بالضحك لدرجةٍ دمعت فيها عيناه من الرقص المنفرد لصغار توندوروتو ، القنفذ .

لقد حاول التجّار عبثاً أَن يعرفوا تقريباً كلّ شيء ، لكن لم يعرفوا بأنّ التوندوروتو هم حساسون بالنسبة للموسيقا و يرقصون بطريقتهم بشكلٍ طبيعي ، كما يسبح الكلب الذي يقذف في الماء .

توندوروتو ، توندوروتو

ماكوتارا ،

توندوروتو !

كلام ... كلام ... دانغ ... دانغ ...

من تحت جلده ومن كثرة ضحكه ، برزت أضلاعه ، كان يضحك ، و يضحك ، و يضحك. ثم تبع الضحك عدّة شهقات وفجأةً سقط على العشب رأساً على عقب ، و كانت عيناه منقلبتين و الزبَد في فمه .

توندورو ، توندورو ،

قفوا جميعاً ! قفوا ! كانت النار تنفث لهيبها و تزداد حرارتها ، كان الدخان يخنق ، أوه !

هل كانت أماكن وجود الثيران مخفيّةً تحت أغصان الشجر ، كلّ شيءٍ في النهاية أصبح جاهزاً ، و في الميدان خيرة الرماة ، لم يعد هناك إلاّ الانتظار ، فالعين القاسية تحت الحواجب المقطبة و الرمح القصير في قبضة اليد ٠

ومضاتٌ و فرقعات و طقطقات و إشارات و صرخات و أيضا رماد و بقايا أعشابٍ و أوراقٍ محترقة و أسراب من النحل و العصافير الصغيرة و حشرات من كلّ الأنواع مثل : جلاّلات و فراشات و جراد و ذباب و زيز ، و كذلك رماد و رماد ٠٠٠

كان الهواء يزيد سرعة الريح بحيث تصبح الشهب مرئيّة .. كانت ألسنتها الطويلة العريضة تلتهم الأعشاب اليابسة و الخشنة التي كانت تفرقع ٠

إنّه الضجيج ! شياهم ، و ضجيج آخر ! ظباءٌ و خنازير بريّة و أرانب ٠٠٠ يا لها من حفلة ! يا لها من بهجة ! اثنان ثلاثة و خمس رماح تخترق الحيوان نفسه !

الدم ينزف ! أها ! يالرائحة الدمّ الزكيّة ، كم هو هائج ! و كم هو ثمل !

ظباء ! شياهم ! و حيوانات قاضمة ! لنقتل هذه الأنواع من الخنازير ذات الأشواك الطويلة القاسية التي تتدحرج كالكرة ، كالقنقذ !

دمٌ ، دمٌ في كلّ مكان ! فالصيد هو رقصٌ أحمر وفظ ٠

- أنت٠٠٠ انتباه !٠٠٠
- مورو ، النمر !٠٠٠
- لنهرب ٠٠٠
- بسرعة إلى تلك الشجرة ٠٠٠
- في هذا الدغل ٠
- أسرع !
- أين نجد مخبأً ؟
- مورو !٠٠٠
- مورو !٠٠٠
- لنهرب !

لم يكن لدى بيسيبنغي الوقت ليسمع أو ليفكر ، فنباح الكلاب و صراخ أصحابها و الشهب و نورها و حرارتها و النشوة المتولّدة من رؤية الدم و عنف الحركات التي سلم لها نفسه هو و أصحابه ، فكلّ هذا الصخب و الحركات و النور أغشى بصره ٠

فقط و في هذه اللحظة كان رمحٌ قصيرٌ و ثقيل يطنّ فوقه ٠

من رماه ؟

باتوالا ٠

لحسن حظه قد جاء إلى جانبه حين كان يتجنب النمر الذي كان يقفز باتجاهه ؟

عندما نهض و كان لا يزال يرتجف ، كان النمر قد اختفى و هو يزمجر بغضب ٠

على عكس باتوالا الذي كان بالقرب منه يحشرج وسط تجمع جمهور غفير من الناس٠ مغتاظاً بسبب هذا الرمح القصير الذي شاهده – و الذي لم يكن موجهاً إليه – كان النمر خلال ذلك ماراً و برفسةٍ من رجله فتح له بطنه ٠

١٣

كان باتوالا يحشرج ببطءٍ و كان على هذه الحالة منذ ليالٍ ثمان ... من الصباح إلى المساء و من المساء إلى الصباح كان يصرخ و يتأوّه دون نهايةٍ و لا توقف ، كان ممدّداً على فراشه ، كانت حمى متواصلة تنخر عظامه وتضرب على أعصابه و تحرق جسده ، كان يطلب من وقت لآخر :

– أريد أن أشرب ! ٠٠٠ أريد أن أشرب ! ٠٠٠

عندما كان يشرب كان يتقيأْ كلّ ما شرِبه و يلهث من شدّة الألم ، ثم يعود و يسقط على حصيرته ٠

لكن ، في ذلك اليوم لم يعد هناك إقياءٌ و لا حمّى ، لم يعد باتوالا يصرخ ٠

كان العرق البارد يبلله ، و بالكاد كان يتحرك ٠

وبدلاً من أن يشتكي وينوح كان يتكلّم ويتكلّم ، ولم يكن ليتوقف إلاّ عندما يبتلع ريقه٠

و بعد عدّة لحظاتٍ ، و ربّما ليلةً واحدةً ، وعلى الأكثر ليلة َ ويوم ، سيكون باتوالا الزعيم الكبير ليس سوى مسافرٍ ، سيرحل و عيناه مغلقتان للأبد إلى تلك القرية السوداء دون رجعة ، و هناك سيلتحق بوالده و بكلّ من سبقه من الأقدمين ٠

هنا حيث لا يمكنه رؤية نهر البومبو و لا البامبا ، و لن يكتشف المرتفعات و لا الوديان التي اعتاد عليها ، سوف لن يحتقر البيض و لن يخضع لهم و لن يتشاجر مع فلان أو غيره بشأن النساء ٠

إنّ الأغاني و الرقصات لا تدوم أبداً ، فبعد موسم الصيف يأتي موسم المطر ، و الإنسان لا يعيش إلا لحظة ٠ والدليل على هذه الحقيقة موجود هنا ، فهو ملموسٌ٠ فها هو باتوالا ، سوف يموت قريباً ... هذا الهذيان الهادئ تَبِعه في نهاية النهار الكثير من الاضطراب ، نعم ، إنّه الاحتضار ٠

يا لك من مسكينٍ يا باتوالا ! لقد اهتموا به رغم كلّ ذلك ! و بشكلٍ طبيعي ليس مباشرة و هذا يعني بعد الحادث ٠

إن الجريح هو دائماًً مهمٌّ و خاصة إذا كان اسمه باتوالا ، لم يكن جرح باتوالا في النهاية إلا تافهاً٠

ثم هل ينبغي و من أجل جريحٍ ترك قطيعٍ من الثيران البريّة يمكن صيدها بأقلّ من ضربة رمح ؟ بالنسبة للموضوع الأول فلدينا متّسع من الوقت للاهتمام به ، أمّا بالنسبة للموضوع

الثاني فهو يشبه ضربة الحظّ ، يجب انتهازها قبل أن تفلت بنسمة هواء ٠

ولذلك قد تُرِكَ باتوالا في ظلّ شجرةٍ بعد أن لُفَّ بغطاءٍ ووُضِع تحت حراسة دجوما ، ذلك الكلب الأحمر الصغير ، ثم استُأنِفَت مطاردة الثيران البريّة٠ ولم يهتمّ أبداً بحالته إلاّ بعد وقتٍ متأخّرٍ جداً ، كان من المملّ أن يكون الإنسان مُجبَراً على الالتحاق بالبامبا بدلاً من البقاء و التهام الطعام مع الأصحاب ٠

ومع ذلك مُددَ الجريح على نقّالة ، وحمل أربعةٌ من الرجال مشاعلَ مطّاطية في أيديهم لكي ينيروا الطريق ، كانت طقطقة هذه المشاعل تخرق خيال النور ، و كان يتبع حاملي النقّالة أربعة من الرجال و من يقف في الخلف و أربعة رجالٍ يحملون المشاعل في قبضة اليد .. كان بيسيبنغي و دجوما يمشيان خلف الموكب ، يا له من مسيرٍ بطيء ، يا له من مسيرٍ ثقيل ، يا له من مسيرٍ بطيءٍ و أخرس و ثقيل !

هنالك عطورٌ ليليّةٌ و قطارب و أصوات أجنحةٍ و ندى و نيران تحتاج لوقتٍ طويل لكي تخمد ، على اليمين و اليسار ، كنّا نرى و نسمع و نعبر كلّ ذلك ٠

ساد الصمت !٠٠٠

ومن مسافةٍ لأخرى كان واحدٌ من حاملي المشاعل يتناوب مع واحدٍ من حاملي النقّالة، جميعهم كانوا صامتين ، كان ينبغي عليهم ألاّ يسرعوا كثيراً و ألا يتباطؤوا كثيراً وألا يترنحوا وألا يقوموا بحركاتٍ مفاجئة ، فأدنى صدمةٍ كان يصرخ باتوالا كالخنزير المجروح ، إذا كان الربّ نغاكورا لا يسمع شيئاً فهذا يعني بأنه يرأف بحاله أو أنّ طرشه لا دواء له ٠

لقد حاذوا سلسلة جبال غوبادجيا و اجتازوا التلال التي تشرف على البايدو وتسلقوا مرتفعات جبل بيغا الذي يزخر بالكثير من الحصى البنفسجية الشفافة والتي يقول عنها البيض بأنّها ثمينة . لقد بلغوا قرى ديباليه حيث تترقرق المياه الباردة لنهر كافالا ٠٠

وهناك جاء وقت الراحة ، وقت الطعام و الشراب ، ومن ثم تابعوا طريقهم ! إنّه نهر البواباتا ، و باتجاه غريماري و على جهة اليد اليمنى ليس ببعيدٍ هناك نهرٌ آخر ، إنه نهر الياكومبا ، ثم و بلا انقطاع نهرٌ آخر الياكو و رافده التاليمبا ، وأخيراً مستنقع الباتاكالا ٠

وبعد ذلك ، نرى الأراضي المزروعة بالذرة البيضاء والصفراء والسمسم و الفاصولياء و فستق العبيد و البامية و البطاطا و ٠٠٠

توقفوا ! نحن أمام بيت الساحر التيمي ٠

للبيض أطباؤهم و للزنوج سحرتهم ، كن على يقين بأنّهم متشابهون وأن هؤلاء يساوون هؤلاء ، فهناك الأطبّاء الجيدون وهناك السحرة السيئون ، ولكن مهما حصل يجب علينا تنفيذ أوامر الساحر ٠

كذلك وعند تنفيذ وصفة الساحر يجب علينا أولاً أن نضع أمام بيت باتوالا سياجاً مثقباً ينفذ منه النور ، وكذلك التعويذات الفعّالة و الظروف المعطرة و الحجابات العظمى ضد العين الحاسدة ، و أخيراً الجلاجل و الأجراس الصغيرة التي ترعب الأرواح الشريرة و تطردها ٠

ورغم كل ذلك فقد تأخر اختفاء الأرواح الشريرة ، وجاءت النائحات و العازفون ليسهروا على راحة باتوالا ٠

للأسف ! لقد حاولوا عبثاً أن يجعلوا الصرخات و أصوات الطبول الأشدّ رعباً تدوي في الكوخ ، لكن المرض كان هو المسيطر٠ كانت هناك قوّة شريرةٌ تعذّب جسده المتهالك ٠ ولم يكن هناك من داعٍ لشدّ بطنه بحبلٍ بقوةٍ ! لقد سبق للروح الشريرة دوندورو أن تجاوزت كلّ الحدود التي أُعطيت لها كي تفعل شيئاً في هذه الحالة ٠

و من جهة أخرى و في كلّ يوم كان يأتي كان بطنه يزداد تعفناً، و كان ذباب الجثث بأحجامٍ كبيرةٍ وبألوان زرقاء و خضراء و سوداء يحوم فوق الجرح المتعفن و النازف و يمصّ مصله ،

لم تستطع رقية دوندورو أن تفعل شيئاً وكذلك تنظيف الجرح بالماء البارد أو الحار ولا طرد الأرواح الشريرة ، ولا استعمال بعض الأعشاب المنقوعة في البصاقة ، ولا روث البقر ،و لا كي الجرح بالحديد الساخن ،

حتى دجوما نفسه كان قرِفاً من العفونة التي كان يبعثرها و قد تخلّى عن لعق جرح سيده من وقتٍ لآخر ،

لقد قام بكلّ واجباته ككلب ، فماذا عساه يفعل أيضاً ، فلم يعد هناك ما يستطيع فعله ،

عندما خاب الأمل استشير الضابط .. وهذا الأخير أبدى رقّةً ساحرة ، و بناءً على النصائح التي طلبها منه الزنوج فقد أجاب بلهجةٍ طريفة مفادها أن باتوالا يستطيع أن ينفق و كذلك كل قومه معه ،

عندئذٍ تمّ التخلّي عن التعويذات وعن الرقيات وعن الحجابات و كذلك تمّ التخلي عن الظروف العطريّة و الأدوية السحرية والتميمات المستخدمة ، لقد اختفى نافخو الأبواق ! ورحلت النائحات ! يستطيع باتوالا الموت ، فقد أصبحت ممتلكاته للنهب ،

كنْ سعيداً يا باتوالا ! فاحتضارك مفيدٌ ، فهو يعيد الذاكرة للكثير من الناس الذين هم مدينون لك بالكثير من الأشياء التي لم تعد تتذكرها ٠

لقد تقاسموا الذرة البيضاء من غلالك واستولوا على قطعانك و سرقوا أسلحتك ... و هذا الأمر صحيح فيما لو لم يعتدوا على نسائك بعد ، كن على يقين بأنّ مصيرهم معروف ، فهن عفيفاتٌ منذ زمنٍ طويل ، و قد وجدنَ من يأخذهنّ ٠

كان باتوالا يحشرج رويداً ، بماذا يحلم يا ترى ؟ و هل كان يحلم فقط ؟ هل كان يعلم بأنّه في ذلك المساء لم يكن عنده أي شخص بالقرب منه في كوخه ؟

كلا ، لم يكن يستطيع معرفة ذلك لأنّه كان يهذي ويحشرج ، وباستثناء دجوما و ياسيغندجا و بيسيبنغي ، كلّ الناس تركوه لقدره ، وحتى رجاله و أقرباؤه و زوجاته وأولاده ٠ وكان يجهل وجود بيسيبنغي و ياسيغندجا في كوخه التي تفصل النار بينهما والتي لم تعد تدفّئه ، كان يجهل بأنّ دجوما ذلك الكلب الصغير الأحمر كان يشخر كالعادة ، ورأسه مقلوب في سلّة مطاطيةٍ ، وكلّ ذلك في عمق كوخه ، ولن يسمع حتى بأن بيسيبنغي قد ضمّ بعنفٍ ياسيغندجا بين ذراعيه ، ولن يسمع صوت ثغاء الماعز و لا أصوات البطّ كواك

ـ كواك ، ورقبته مشدودة بفضول باتجاه هذا الضجيج الغريب .. كان يهذي ٠٠٠

ومرّةً أخرى ، وفي هذيانه كان يقول بأنّه يلوم البيض ـ لكذبهم و قسوتهم و نقص منطقهم و نفاقهم ، وأضاف و هو يتمتم بشكلٍ دائم بأنّه ما من باندا أو ماندجيا ، ما من بيض ولا زنوج ، فليس هناك إلاّ بشر ـ و إنّ كلّ البشر إخوة ٠

توقّف قليلاً ثم تابع مناجاة نفسه المشوشة : يجب ألاّ يضرب الإنسان جاره و ألا يسرق ، فالحرب و الوحشية وجهان لعملةٍ واحدة .. لكن ألم يجبَر الزنوج على المشاركة في وحشية البيض و الذهاب للموت من أجل البيض في حروبٍ بعيدة !

و من كان يعترض على ذلك كان مصيره الإعدام شنقاً ، أو بالمقصلة أو يُزَجُّ به في السجن !

امشِ أيّها الزنجيّ القذر ! امشِ و مُت ! ٠٠٠

صمتٌ طويل .. جاء دجوما ليشم سيده ، بماذا شعر دجوما عندئذٍ ؟ من استطاع أن يخبره بأن النهاية قد اقتربت ؟ لماذا شعر فجأةً بالضيق ؟ هل أراد أن يسمع عن كثب صوت من ينظر إليه بروحٍ غامضة ؟ هل الغريزة العجوز التي تختلج فيه و التي تدفع أحد الحيوانات و هو على وشك الموت لخلق هدنةٍ مع أيّة

مشاجرة ، و بخطمٍ قلق و بهدوءٍ يبعد الأعشاب في الاتجاه الذي يفترضُ أن يكون فيه ، هل سيكون الإمساك به صعباً ؟

لا ندري ، فهناك لحظةٌ تأتي بعد ذلك و يكون فيها متذمراً و جاثياً و خطمه ممدّداً على قدميه الأماميتين و ظهره معرَّضاّ للنار ٠

لقد رأى كل من ياسيغندجا وبيسيبنغي باتوالا و هما يهزان رأسيهما ٠

– سألت ، هل مات ؟

– كلا ، ليس بعد ، أجابها ٠

لقد تفاهما و ابتسما ، فهما وحيدان في هذا العالم و سيدا قدرهما ، و لن يستطيع أحدٌ من الآن فصاعداً أن يفرق بينهما ٠

كان منخرا باتوالا مضمومين و كان يشخر ٠

وبحلاوة الحياة ، وهي من أروع اللحظات ، اقترب بيسيبنغي من ياسيغندجا و قبّلها وأخضعها لرغبته و هي راغبةٌ و راودها عن نفسها ٠٠٠

باتوالا ، إنّه من غير المفيد أن تمتنع أكثر عن عدم الرغبة بالموت ، هل ترى ، هما وحدهما موجودان ، و أنت لقد حذفاك ، و لم تعد تعني شيئاً بالنسبة لهما ٠

لكن لماذا شخرت عندما كانا يتأوهان من شدّة الرغبة ؟ أها ! ٠٠٠ وعيناك المفتوحتان ، وعيناك اللتان فتحتا٠ وأنت أنت ذلك البشع من شدّة نحافتك ، لماذا نهضت من فراشك ؟

آهٍ يا باتوالا ! ٠٠٠أنت تتقّدم مترنحاً ويداك ممدودتان كالطفل الذي يتعلم المشي ! إلى أين أنت ذاهبٌ ؟ نحو بيسيبنغي وياسيغندجا ؟ هل ستكون إذاً غيوراً حتى رمقك الأخير ؟

ألا تستطيع أن تتركهما وشأنهما يا باتوالا بما أنك ستموت وهما سيمارسان الجنس؟

هما لن يتذكرا أين هما ! ولن يرياك أو بالأحرى لم يرياك مطلقاً ، فهما ٠٠٠

فهذا هو عملك ٠٠٠

هل أنت سعيد ، ها ؟ سعيد ، أليس كذلك ؟ منفصلان وكانا ملتصقين بالجدار و كلّ أعضائهما وأسنانهما ترتجفان من الذعر ؟

و أنت ، ها ! يانغاكورا ، لقد انتهيت من خلال جهدك المتهور الذي قمت به و قتلت نفسك بقطعة واحدة ، لقد سقطت على الأرض بقوةٍ كما تهوي شجرة كبيرة ٠٠٠

عند سماع هذه الضجة كان البطّ ينقّ و الدجاج يقاقي و كان الماعز يجري في كلّ الاتجاهات ، و كعادته كان دجوما يتذمّر دون أن يفتح عينيه ٠

كانت ديدان الخشب تملأ سراديبها بالتراب الأسمر لفتراتٍ طويلةٍ عبر احتكاكٍ مستمر ٠

لكن ياسينغدجا وبيسينغي كانا قد اختفيا تحت جنح الليل ٠٠٠

شيئاً فشيئاً هدأ الضجيج و خلدت الحيوانات للنوم ، و لم يعد غير الصمت يراقبك يا باتوالا، و لا يوجد غير الوحدة و الليل الطويل معك يا باتوالا ، فارقد٠٠٠

ارقد ٠٠٠

النهاية